

إسلام القرآن وإسلام الحديث

مُلخَّص المشروع الإصلاحي

للمرجع الديني السيد كمال الحيدري

بقلم

الدكتور طلال الحسن

بسم الله الرحمن الرحيم

ديباجة المرور

جاء الرسول صلى الله عليه وآله بإسلام القرآن، وهتف بأُمَّة الإنسان: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)، ولكنَّ الأحبار خنقتْهم ظُلمتُهم أمام نور القرآن؛ ولـمَّا لم يُمكنهم إحداث شيء في القرآن نادوا بأنَّ (السنّة قاضية على القرآن)[١]؛ والسنّة ممنوعة التدوين، وممنوعة الانتشار، فاخترعوا للأُمَّة سنّةً على ألسنة الأحبار والقسِّيسين، وكان لابدَّ لهم من غطاءٍ شرعيّ فوضعوا على لسان النبي صلى الله عليه وآله زوراً وبهتاناً أنّه قال: (حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج!!!)[٢]؛ فكانت قصص بني إسرائيل، وكان المشروع الإسرائيلي؛ ونصب لهم الحزب الحاكم كرسيّ الأقاصيص في المسجد النبوي ليقولوا لنا بدلاً عن القرآن: نحن نقصّ عليكم أحسن القصص!.

ولَمَّا جاء الإمام علي ـ وهو القرآن الناطق وإسلام القرآن ـ للحكم فرَّ القصَّاصون إلى كهفهم الحصين، الكامن في الشام (معاوية)، فملأوا الشام بإسلام الحديث، بإسلام بني أُميّة،

---

(١) سنن الدارمي: ج١ ص١٤٥.

(٢) صحيح البخاري: ج٤ ص١٤٥.

بإسلام الأحبار، والناس على دين ملوكهم، حتّى جاء موعد تدوين السنّة في مطلع القرن الثاني، ليتصدّى لنا أفسد حبّة في عنقود الإسرائيليات (ابن جريج الأمويّ الرومي) فيجمع ذلك الغثّ والدسّ والمناكير، التي خلَّفها ثمرات فؤاده (زعماء الإسرائيليات) فبثّها في الحديث وفي التفسير، لنجد أنفسنا محكومين بإسلام الحديث، عفواً بإسلام بني أُمية، عفواً بإسلام أحبار اليهود والنصارى.

واليوم قد آن الأوان للعودة إلى إسلام القرآن، إلى إسلام الرسول، أو قل: العودة للذي: ﴿يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾.

العبد الفقير إلى ربِّه

طلال الحسن

توطئة

انطلاقاً من مسؤليتنا الدينية تجاه ديننا الإسـلامي الحنيـف، وأداءً لوظيفتنا الشرعية والتزاماتنا الأخلاقية تجاه الأُمّة الإسلامية جمعاء، نُقدِّم هذا التعريف الموجز بمشروعنا الإصلاحي لواقعنـا الديني، والمُتعلِّق تحديداً بتراثنا الروائي، والذي يُمثّل في حقيقتـه مشروع الانتقال من إسلام الحديث إلى إسلام القرآن.

ونظـراً لأهمّيـة هـذا المـشروع التغيـيري وضرورتـه، بـل وخطورته؛ لما له من صلةٍ وثيقةٍ بواقعنا الـديني بجميـع أبعـاده، المعرفية والمعنوية والسلوكية، عقيدةً وشريعةً وسلوكاً، ومـسيس الحاجة لإخراجه إلى الواقـع بـأسرع وقـت ممكـن، فقـد ارتأينـا عرضه بأُسلوبين:

الأوّل: عرض المشروع بأُسلوبٍ موجز، نكتفي فيه بعـرض الأفكار الأساسية، وبيان الخطوط العامّة له، وهذا هو المقروء في هذا الكرّاس الصغير.

الثاني: وهو العمدة في بيان تفاصيل المشروع وخصوصيّاته، والتي سيمثّل عندنا المصدر والمرجع الأساس في التعريف بأصل المشروع وتفاصيله، وهو ما نعمل جاهدين على إخراجـه لأُمّتنـا الإسلامية بأسرع وقت ممكن.

ونحن على ثقةٍ كبيرة من استجابة الأُمّة لهذا المشروع، الذي يُلبِّي حاجةً واقعيةً في وسطنا الديني، ونحن نُشاهد هذا الكمّ الهائل من التشرذم والتقاطع في الصفوف نتيجة العزوف عن إسلام القرآن والتمسّك بإسلام الحديث.

كما أنّنا على ثقةٍ كبيرةٍ بوجود الرغبة المشتركة في إيجاد التغيير، وعلى إيمانٍ عميقٍ راسخٍ بضرورة اشتراك الأُمّة ـ التي تمثّل أرضية العمل ـ في تحويل هذا المشروع الإصلاحي من سطورٍ معرفيّةٍ إلى سلوكيّاتٍ عمليّة؛ فنحن بقدر إيماننا بالله تعالى وبالرسول ﷺ والقرآن، فإنّنا نؤمن بفاعلية الأُمّة التي طالما عمِل إسلام الحديث على جعلها منفعلةً فقط، فكان دورها تلقّياً سلبيّاً على امتداد القرون السالفة، وتحديداً منذ تأسيس الدولة الأمويّة وإلى يومنا هذا؛ فلا بدَّ للأُمة من استعادة دورها القرآني، وهو دور الفاعلية، قال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (محمد: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ (التوبة: ١٠٥)، والخروج من دور المفعولية، دور الذلّة والخنوع؛ وإسلامُ القرآن يقول: ﴿**...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (المنافقون: ٨)، وأيّ ذلّ أعظم من ذلّ التلقّي الأعمى؟!.

نعم، إنَّ إسلام القرآن يأمرنا جميعاً بالتدبّر في جميع أُمورنا

التي تعرَّض لها القرآن، ولكنَّ إسلام الحديث يأمرنا بالانكفاء على أنفسنا وأداء الطاعة للظالم ولو ضرَب ظهورَنا وسلب أموالنا، ولو توارث الحكم والسلطان، فيَصِلُ غير الكفوء لمقامات قيادة الأُمّة في أُمور دينها ودنياها.

من هذا المنطلق والواقع المعاش في عالمنا الإسلامي ندعو أبناء أُمّتنا الإسلامية إلى قراءة هذا المشروع بتدبّر، والعمل على تبنّيه وتوسعته وترشيده، فإنّنا نؤمن إيماناً راسخاً بأنَّ المرجع الديني الحقيقي لا يكون مرجعاً واقعياً وفاعلاً إلّا بدعم وتأييد سلطة الأُمّة بالمعنى الإيجابي لا السلبي المعاش واقعاً، وهذا ما ينبغي تبيينه في عرض المشروع بأُسلوبه التفصيلي.

إذن نحن أمام مشروعٍ يسعى للخروج بالأُمّة من سباتٍ طويلٍ وعميق، ويُعرِّف المسلمين بإسلامها الحقيقي الذي اغتيل مراراً وتكراراً باسم العلم، وهو إسلام القرآن الذي نُزِّل على قلب النبي ﷺ لِيُخرج به الناس من الظلمات إلى النور.

أقول قولي هذا راجياً من المولى القدير أن يمدّنا بعونه وتوفيقه خدمةً لكتابه العزيز ودينه القويم، والحمد لله رب العالمين.

كمال الحيدري

المحور الأول

الرؤية الدينية

البناءات العلوية للرؤية الدينية

إنَّ البناءات العلوية للرؤية الدينية: هي نفس المنطلقات الأساسية التي تشكَّل في ضوئها الدين الإسلامي بأُصوله وفروعه، ولا ريب أنَّ جميع أُصوله برهانيّة وحيانية خالصة، أي: عقلية قرآنية؛ وأمّا فروعه ـ التي يغلب عليها التشكيل الروائي ـ فلا بدَّ أن تكون متفرِّعةً ومبتنيةً على تلك البناءات العلوية، وإلّا يُضرب بها عرض الجدار. وحيثُ إنَّ الأعمّ الأغلب منها ـ بحسب واقعنا العملي ـ قد تشكَّل في ضوء الموروث الروائي، فإنّه لابدَّ من تحصين ذلك الموروث الروائي لضمان صحَّة ما نحن فيه، وليس أمامنا سوى التمسّك بالقرآن والعقل.

إنَّ سياق الأحداث التاريخية بعد وفاة الرسول ﷺ جرى بنحوٍ اشتمل على الكثير من الأخطاء، التي انتهت بنا إلى التمزّق والتفرقة، حتّى بات الصحابة يُقاتل بعضُهم بعضاً، ويُكفِّر بعضُهم بعضاً، فكانت المذاهب والفرق؛ وما كان ذلك ليكون، لو تمسَّكت الأُمّة بإسلام القرآن وتركت إسلام الحديث الذي صار مرتعاً للوضع والدسّ والتزوير، فإذا ما أراد أحد تمرير قرارٍ أو فكرةٍ لا أصلَ قرآنيّ لها أمَر الوضَّاع بأن يضعوا له حديثاً على لسان الرسول ﷺ أو على لسان أهل البيت عليهم السلام أو على لسان

الصحابة، فكان وضع الحديث أشبه بإطلاق الفتوى الفوضوية في عصورنا هذه، وهذا ما أدى بالأُمّة إلى التحوّل التدريجي من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث، أو قل: التحوّل من الإسلام المحمّدي المُوحِّد إلى الإسلام الأمويّ المُفرِّق.

وهكذا تحكَّمت بالأُمّة بنودٌ روائيةٌ موضوعة أسَّسها أُجراء مُزيِّفون، ونعني بهم طبقات من المحدِّثين؛ فصار الإسلام والمسلمون محكومين للأخبار والروايات التي اختلط فيها الحابل بالنابل، والغثّ بالسمين، وزيَّنوا لنا الغثّ بعنوان الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها؛ وما كان ذلك ليكون لولا سلطة إسلام الحديث واغتصاب إسلام القرآن.

وهكذا وجدنا أنفسنا بفعل ظلمات إسلام الحديث الأمويّ أمام ثقافات اجتماعية وأُصول دينية لا أصل لها سوى ذلك الدسّ والتزوير، وأحدثوا لنا مقابلات تاريخية عقيمة، لا منتصر فيها، بل الجميع فيها خاسر، والخاسر الأعظم هو الإسلام والقرآن والإنسان، وأحدثوا لنا أطرافاً متطرّفة تُوقد في الأُمّة نيران الفتنة بين الحين والآخر، مثّل أدوارها كلٌّ من النواصب والمغالين، والخاسر الحقيقي هو الإسلام والقرآن والإنسان؛ وهكذا وجدنا أنفسنا أمام إسلامٍ تكفيريّ وإسلامٍ خرافيّ وأُسطوريّ، وإسلامٍ جبانٍ خانع، وإسلامٍ لا وجه له، وإسلامٍ

حقيقيّ يخشى أصحابُه البوحَ به.

ومن المآسي الكبرى: ابتلاء الكثير من الثقاة التقاة الورعين الصالحين من علماء الأُمّة بما وصل إليهم، ونظراً لكون الكثير منهم لم يكونوا سوى محدِّثين ثقات ورعين فإنّهم قد منعتهم تقواهم وورعهم من التشكيك بكمّ كثير من الموروث، فتقبَّلوه بحسن نيّة، وأرجعوا معانيه إلى أهله فيما لا يفهمون، وقد كان الأجدر بهم الكفّ عن نقله، إلّا أنّهم انساقوا للنقل ولم يتثبّتوا، ظنّاً منهم بوثاقة الراوين، وقد كان الكثير من الرواة ثقاتٍ في أنفسهم ولا ريب، ولكنّه ممَّن عُمِّي عليهم، فوصلتهم الروايات المُعمَّاة وقاموا بدورهم بالنقل وهم عليّة القوم، فزادوا الطين بلّة(١)، وازداد الناس عمىً على عمى.

حاكميّة النزعة الروائية

لا ريب في ضرورة الرجوع إلى الروايات المرويّة عن الرسول ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، فتلك ضرورة دينيّة ملزمة، وضرورة معرفيّة لفهم الدين والوقوف على تفاصيله، وهذا أمرٌ واضح لا نقاش فيه عند المدرستين معاً؛ ولكنَّ هذا الرجوع الضروري لا يصحّ فيه إلغاء القرآن، بمعنى الاكتفاء بالرواية

(١) مثل عربي يُضرب لازدياد الشيء سوءاً.

دون الآية؛ فإنَّ الروايات موقوفةٌ على القرآن ومتعلِّقة بـه، لأنّهـا بيانٌ وتفصيلٌ له، فإذا ما طالعْنـا نـصوصاً تفـصيلية فلابـدّ مـن جذرها القرآني؛ ليكـون دلـيلاً عـلى صـحَّة التفـصيل، وبـذلك سيكون عندنا أصلٌ قـرآنيٌّ شـاخص نُحـدِّد مـن خلالـه صـحَّةَ وواقعيةَ ذلك الكمّ الهائل من الروايات ومن ثَّم العمل به، وهذه هي الفكـرة الأساسـية لإسـلام القـرآن الـذي نـدعو لـه، وأمّـا الانكفاء على الروايات دون متابعة جـذرها القـرآني فـذلك هـو إسلام الحديث الذي نُحـذّر منـه، لأنَّ الـتراث الروائـي بإجمـاع الأُمّة فيه الغثّ والسمين، والغثّ هو الدسّ والوضع والتزويـر، والإسرائيليات التي غطّت مساحاتٍ كبيرةً منه.

إنَّ إسلام القرآن هو دعوةٌ صريحـة للخـروج مـن الغيـاب والتغييب الكبيرين للقرآن في المراجعة الروائية، فإنَّ دور القـرآن في ظلّ إسلام القرآن يبقى حيّاً ناطقاً حتّى مع وجود الروايـات، بخلاف إسلام الحديث الذي لا صوت له سوى صوت الرواية، فهو أخباريٌّ شكلاً ومضموناً، حتّى وإن كان أصحابه أُصـوليين ظاهراً.

إنَّ البحـث الروائـي في دائـرة إسـلام الحـديث هـو حجـر الزاوية في جميع بحـوثهم العلميـة، شـيعةً وسـنّة، وأمّـا البحـث القرآني ومعطياته فهو قطب الرحى في إسـلام القـرآن، ولـذلك

فإنَّ أصحاب إسلام الحديث ـ سنّةً وشيعة ـ هم المصداق الأبرز لاتّخاذ القرآن مهجوراً في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ (الفرقان: ٣٠)، فالرسول يدعوهم لإسلام القرآن وهم يدعون لإسلام الحديث، وأيّ حديث؟ إنّه الحديث المشوب بالدسّ والتزوير على مرّ التاريخ.

وهذا التمسّك الحادّ بإسلام الحديث هو ما نُطلق عليه بالنزعة الروائية الطاغية على كافّة المعارف الدينية، وحيثُ إنَّ الروايات يغلب عليها الجانب التطبيقي فقد غابت النظرية في طيّات البحث، أو قل: غاب التصوّر العامّ لأصل المسائل في سلسلة الجزئيّات والتفاصيل، ومن ثمَّ صار الخروج عن أصل النظرية أمراً طبيعياً ومتوقَّعاً، ليشكِّل لنا في أوساطنا العلمية رؤىً دينيةً متقابلةً ومتنافرةً ومتقاتلة؛ نتيجة الركون إلى التفاصيل الموهمة أحياناً، وغياب الصورة العامّة الجامعة، أو قل: غياب النظرية القرآنية، أو قل: غياب إسلام القرآن.

وإذا ما غابت النظرية القرآنية فمن الطبيعي جدّاً أن تقفز أمامنا نظرياتٌ دينيةٌ علمائية، ونتيجة التعايش معها والأُنس بها فإنّها سوف تُشكِّل عموداً فقريّاً في بناء وجدانٍ دينيٍّ علمائيّ لتلغي لنا الوجدان القرآني، وبالتالي سيصبح من الطبيعيِّ جدّاً وقوع التنافر والتقاتل بين فصائل الأُمّة، فكلّ فصيلٍ يتمسّك

برأيه وفهمه ونظريّته التي ينسبها للقرآن الكريم والسنّة الشريفة، مع أنَّه فهمٌ علمائيٌّ ونظريةٌ علمائيةٌ غاب في طيّاتها الأصل الأوّل وصار فهم الشخص بديلاً عنها؛ وما كان ذلك ليقع في الوسط العلميّ لولا حاكمية النزعة الروائية، وما كان ذلك ليكون لو رجعت الأُمّة إلى إسلام القرآن.

دور القرآن في فهم الدين وتكوينه

من هنا يتبيَّن عظيم الحاجة للمراجعات القرآنية لإعادة فهم الدين، فبعد مرور قرونٍ من الزمن على حاكمية النزعة الروائية، والتي في ظلّها تشكّل الوجدان العلمائي كبديل عن الوجدان القرآني، فإذا لم نقم بعملية قهقرية للتمسّك بذلك الأصل القرآني فإنّه لا خلاص لنا من هذا التشرذم المعرفي والرُّؤَوِي والتطبيقي، وإذا ما رجعنا إلى ذلك الأصل المتّفق عليه نظريّاً فإنّنا سنكون أمام واقعٍ جديدٍ وعودةٍ أصيلة من فهمٍ علمائيٍّ للدين إلى فهمٍ قرآنيٍّ له.

وهذه هي المسؤولية التاريخية التي تفرض نفسها وتدعونا إلى إعادة صياغة الدين، أو قل: إنّها مسؤولية العودة للدين القرآني بعدما استغرقنا في الدين الروائي الذي ما برح أن صار ديناً علمائياً محدوداً بحدود فهم أصحابه.

من هنا يتّضح لنا حجم العقول المسفّهة للرجوع إلى القرآن،

إنّها عقول مدافعة عن قلاعها ونتاجها الشخصي، لا ترى الدين إلّا من خلالها، ولا تريد للدين أن يخرج إلّا من تحت عباءتها، فلا الدين القرآني قدَّموه ولا الدين القرآني اعتنقوه ولا الدين القرآني رضوه!.

إنَّ من أعظم المشاكل وأخطرها جميعاً: أن يُرينا العلماء وجه الدين من خلالهم لا من خلال القرآن والسنّة الشريفة المنضبطة بالقرآن، وهذا الأمر قد لا يدّعيه أحد، فكلّ عالمٍ دينيٍّ يرى دينه من خلال القرآن والسنّة الشريفة، فهو لا يصدِّق مع نفسه أنّه أمام دينٍ شخصيّ وليس أمام دينٍ قرآنيّ، والسرّ في ذلك هو الاندكاك القاتل في فهمه القاصر، أو قل بأنَّ السرّ يكمن في انعزاله عن الأصل الديني المتمثّل بالقرآن، وبعبارة ثالثة أكثر شفافية ووضوحاً: غيابه القاتم في جهل مركَّب يعسر عليه الخروج منه.

دور السنّة في فهم المعارف الدينية

ربما يُتصوَّر بأنَّ مشروعنا الإصلاحي يتقصَّد السنّة الشريفة ويعمل على إقصائها كمصدرٍ أساسيّ في تشكيل الرؤية الدينية وفهم المعارف الدينية، وهذا تصوّر خاطئ، فنحن لا نعتقد بمحورية القرآن بالمعنى المشهور لهذا الاتّجاه الذي يقصي السنّة الشريفة عن الرؤية الدينية، وكيف يتسنَّى لنا الاعتقاد بذلك وهو

مخالف تماماً لصريح حديث الثقلين الملزم بالتمسّك بالقرآن والعترة الطاهرة، أو بالقرآن والسنّة؛ وإنما نحن بصفتنا ملتزمين بإسلام القرآن يتعيَّن علينا الالتزام بوظيفة السنّة في الرؤية القرآنية، ولا نجد أنفسنا ملزمين بالالتزام بالسنّة المنظورة بحسب الرؤية العلمية ولا بحسب رؤية إسلام الحديث؛ ومن الواضح أنَّ الوظيفة الفعلية للسنّة هي بيان القرآن، كما قال تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤)، فالتبيين للقرآن يمثّل خلاصة دور السنّة، وعليه فالسنّة لا تُؤسِّس لشيء وإنما تبتني على ما أجمله القرآن، وهذا ما حدا بأئمّة أهل البيت عليهم السلام إلى إرجاع السنّة للقرآن من خلال روايات العرض، حتّى ورد عنهم توجيه الأُمّة إلى السؤال دائماً عن الحلول من القرآن نفسه لا غير.

وبالتالي فإنّه إذا ما قرأ أحدٌ على الناس روايةً فلنا أن نطالبه بأصلها وجذرها القرآني، فتلك هي المطابقة الدستورية، وهذا هو إسلام القرآن، وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إذا حدّثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله**»[1]، أفيكون التزامنا بالرؤية القرآنية وبوصيّة الإمام الباقر عليه السلام بالرجوع للقرآن محاولةً إقصائيةً للسنّة

---

(١) أُصول الكافي: ج١ ص٦٠ ح ٥. والآيات الشريفة: «النساء: ٥ و١١٤»، و«المائدة: ١٠١».

الشريفة؟! ما لكم كيف تحكمون؟ هذا أوّلاً.

وأمّا ثانياً فنحن لا ننظر للسنّة الشريفة برؤية واحدة، وإنـما نُقسِّمها على قسمين، سنّة محكيّة وسنّة واقعية؛ والسنّة الواقعيـة: هي السنّة المسموعة مباشرةً من المعصوم عليه السلام، وهي سنّة قطعية لا كلام في مناقشة سندها، وهي السنّة التي عاش تفاصيلها جميع من عاش في عصر النصّ وسمع منهم عليهم السلام مباشرة؛ وأمّا السنّة المحكيّة: فهي السنّة المنقولة عنهم عليهم السلام، وهذه السنّة قد أُصيبت بـداء الـدسّ والتزويـر والوضـع والتـدليس، فـضلاً عــن الإسرائيليات والنصرانيَّات والمجوسيّات والصابئيّات، التي أوّل ما دخلت في الأخبار عن طريق كعب أحبار اليهود، ووهب بـن منبّه النصرانيّ، وعبد الله بـن سـلام الإسرائـيلي، وتمـيم الـداري النصراني؛ ثم جمعها وصنَّف فيها ابـن جـريج الأمـويّ الرومـيّ، فهؤلاء هم أقطاب الروايـات الإسرائيليـة، وإن شـئت فـسمِّهم برموز الموروث الروائي الإسرائيلي، الذين خلقوا لنا واقعاً سـيّئاً ومريراً لا زالت الأُمّة تـدفع ثمنـه، تـاه فيـه العلـماء فـضلاً عـن المتعلّمين، فما عاد الكثير من العلماء فضلاً عمَّن سواهم يميِّز بين الغـثّ والـسمين؛ حيـثُ صـار المفـسِّر للقـرآن أحبـار اليهـود والنصارى، ليغيب صوت رسول الله صلى الله عليه وآله وصوت الأئمّة مـن أهل البيت عليهم السلام، وصوت الصحابة الأجـلّاء، وصـوت القـرآن

الناطق؛ وهكذا نجح رموز الموروث الإسرائيلي بإعلاء صوت الغثّ على السمين، أو قل: بإعلاء صوت إسلام الحديث الأمويّ على إسلام القرآن.

وأمّا الشواهد على دخول الإسرائيليات في تراثنا الروائي والتفسيري فأكثر مما تُحصى، بل حدّث ولا حرج، فأصحاب إسلام الحديث الأمويّ وضعوا حديثاً عاصماً لهم، ونقلته كتب الصحاح، وهو الحديث المكذوب على رسول الله من أنّه قال: (حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج!!)[1]؛ نكرِّر: حدّثوا؛ ونؤكِّد: ولا حرج!!.

الله أكبر، لقد منع إسلام الحديث أن نتحدّث في مناقب آل محمّد، وأباح لنا التحدّث عن بني إسرائيل، بل أمرنا بذلك، هذا هو إسلام الحديث الأمويّ، فأغيثونا منه وارفعوا عنّا الحرج في كشف خباياه ودفائنه، وفضح مخطّطاته ومرجعيّاته.

والخلاصة: أنّنا لا نرفض السنّة الواقعية البتّة، كما لا نرفض السنّة المحكية البتّة أيضاً، وإنّما ندعو لتمحيصها من الشوائب، فما الضير في ذلك؟.

وأمّا ما قام به الأعلام وروَّج له الإعلام من تقديم حلولٍ

(١) صحيح البخاري: ج٤ ص١٤٥.

عقيمةٍ تُعالج ما أصاب السنّة المحكيّة من وضع ودسّ وتزوير، وبلطائف الحيل، من قبيل السند وعلم الجرح والتعديل وعلم الرجال لتصحيح الروايات، فإنّها لم تعُد حلولاً ناجعة، فما صُحِّح بهذه الطرق رواياتٌ كثيرةٌ منافيةٌ لتعاليم القرآن، كما أنّها طرقٌ إقصائيّةٌ حقيقيةٌ للسنّة؛ وذلك بإقصائها عدداً لا يستهان به من الروايات ـ التي يشتمل الكثير منها على المضامين العظيمة ـ بحجّة ضعف سندها.

ما نريد بإسلام القرآن: هو إنقاذ تراثنا الروائي والتفسيري والعقائدي من الدسّ والتدليس والكذب والغلوّ والتقيّة والإسرائيليات؛ بل والتخلّص من عشرات الآفات والأمراض التي ابتليت بها السنّة المحكيّة الموجودة بأيدينا، سواء كانت من الموروث الروائي السنّي أو الموروث الروائي الشيعي.

الرؤية العلمائية والرؤية القرآنية

إنَّ هنالك ضرورة دينية ومعرفية وأخلاقية تدعونا للخروج من الرؤية العلمائية للدين إلى الرؤية القرآنية، وهذا لا يكون إلّا بالخلاص من النزعة الروائية، وتلك النزعة الروائية لا يمكن الخلاص منها إلّا بمعرفة دورها وحدودها المحكومة بالأصل القرآني؛ وعندئذ ستسقط أقنعةٌ كثيرة وتبطل مجموعةُ أفكارٍ هدَّامةٍ طالما أسَّست وعمَّقت الجراح في روح وجسد الأُمّة؛

وعندئذٍ سنكتشف روح الوحدة القرآنية كما سنكتشف روح الفرقة والتمزّق العلمائي، فإنَّ الدور التاريخي للحكّام الظلمة هو تأسيس الفرقة والتفرقة، وأمّا دور علماء السوء فهو تعميق ذلك التأسيس الظالم، والعلماء الذين عزفوا عن القرآن ونظرياته الدينية، لينتهوا بالأُمّة إلى نظريّات علمائية شخصانية، جمّلوها وزيّنوها بروايات موضوعةٍ كاذبة وتأويلاتٍ قرآنيةٍ ما أنزل الله بها من سلطان، ظنّوا أنّها علم وهي ليست بذلك.

إذن لابدّ من الفصل بين الرؤية الدينية العلمائية القائمة وبين الرؤية الدينية القرآنية، ولابدّ من كسر ذلك الطوق التاريخي الذي فرضه حكَّام الظلم والجور والفسق والفجور، ولا ندري كيف لأُمّةٍ عاقلة أن ترتضي لحاكم ظالم تنصيب عالم لها؟!!!.

ونحن لا نجد تكليفاً أعظم من الرشد والنصح في هذا الجانب، بل ولا نجد تكليفاً أعظم من التضحية في هذا الطريق، ومن سار على الدرب ببصيرةٍ وصل؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّه عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّه وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (يوسف: ١٠٨).

رموز الموروث الروائي والتفسيري الإسرائيلي

الرمز الأوّل: كعب أحبار اليهود، الأُستاذ الأوّل لأبي هريرة.

الرمز الثاني: وهب بن منبّه النصراني، وكانت روايته

للمسند قليلة، وغزارةُ علمه في الإسرائيليات، وصحائف أهل الكتاب[١]؛ ووُجد لنقل غثّه تلامذة كثيرون، ومخلصون، منهم ولداه عبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن وهب، وخلقٌ سواهم[٢].

الرمز الثالث: عبد الله بن سلام الإسرائيلي (ت: ٤٣هـ)، وهو من أحبار اليهود، والأُستاذ الثاني لأبي هريرة وجماعة آخرين، روى لنا أنّه جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: إنّي قد قرأت القرآن والتوراة. فقال: اقرأ بهذا ليلة، وبهذا ليلة!!![٣].

الرمز الرابع: تميم الداري النصراني[٤]، أوّل من قصّ القصص في مسجد الرسول، بإذنٍ من عمر[٥]، وقد بالغوا في تعظيمه حتّى صيَّروا رسول الله تلميذاً ومتلقّياً وتابعاً له، فقالوا فيه ما يشبه الكفر: إنّه الصحابي الوحيد الذي روى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله[٦]؛ ولكم أن تسألوا عمَّا كان يرويه عنه الرسول؟

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ج٤ ص٥٤٥.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ج٤ ص٥٤٥.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء: ج٢ ص٤١٩؛ رقم:(٨٤).

(٤) زوج فروة بنت أبي قحافة أخت الخليفة أبي بكر بن أبي قحافة.

(٥) انظر: الإصابة: ج١ ص١٨٤؛ سير الأعلام: ج٢ ص٤٤٧ رقم:(٨٦).

(٦) كما في قصَّة الجساسة. انظر: سنن الترمذي: ج٣ ص٣٥٥ ج٢٣٥٤؛

والجواب: إنّها الإسرائيليات ولا فخر!، ليقولوا لنا على لسان النبي: يا تميم الداريّ، ويا قاصّ بني إسرائيل! قصّ علينا أحسن القصص.

إنّه كفر ما بعده كفر، وسخرية بنا ما بعدها سخرية.

الرمز الخامس: ابن جريج الرومي (صاحب التصانيف)(١)، فاتح علم تدوين الحديث(٢)، وفاتح علم التفسير تدويناً(٣)، الأمويّ النزعة، الرومي الأصل، النصراني السابقة، والوضّاع المدلّس(٤).

سرّ أسرار الأخذ بالإسرائيليات

وهنا مكمن سرّ الأسرار، الذي رسم لهم خارطة الطريق لتدوين الإسرائيليّات والنصرانيّات في المصنّفات الحديثية والتفسيرية؛ فإنَّ روّاد الإسرائيليات كانوا يدركون جيّداً أنَّ الأخذ بأقوالهم وتُرّهاتهم ودجلهم لا يمكن تحقيقه أبداً مهما

مسند أحمد: ج٦ ص٣٧٣؛ صحيح مسلم: ج٨ ص٢٠٤؛ وعشرات المصادر الأُخرى.

(١) تذكرة الحفاظ: ج١ ص١٦٩.

(٢) انظر: سير الأعلام: ج٦ ص٣٢٥؛ رقم:(١٣٨).

(٣) الطبقات الكبرى: ج٥ ص٤٩١.

(٤) انظر: تقريب التهذيب: ج١ ص٦١٧؛ ميزان الاعتدال: ج٢ ص٦٥٩.

أضفوا من طهارةٍ وقداسةٍ على أُولئك الأحبار والحاخامات والكهنة، ولا يكفي أن يروي عنهم البخاري ومسلم، ولا يكفي أن يُوثّقهم ابن حجر أو الذهبي، وإنما لابدَّ من غطاءٍ شرعيٍّ لما ينقلون، وحيثُ إنَّ أبواب القرآن مقفلة، فلا يُمكنهم الدسّ فيه، فكان لابدَّ من التوجّه للسنّة، لإسلام الحديث، ليضعوا على لسان رسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حديثاً يُكذّبه كلّ موحِّد، ويضطرب منه كلّ مسلم غيور، وهو ما تقدّم ذكره: (حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج!!!)[1]، ويُردفه الترمذي بقوله: (هذا حديثٌ حسنٌ صحيح)[2].

---

(١) صحيح البخاري: ج٤ ص١٤٥.

(٢) سنن الترمذي: ج٤ ص١٤٧ ح ٢٨٠٧.

المحور الثاني

نشأة الموروث الروائي
وتأثيره

ملامح عصر ما قبل التدوين[1]

الملمح الأوّل: وضع الحديث واختلاقه

إنَّ وضع الحديث واختلاقه والكذب على رسول الله في مختلف الدوائر المعرفية هو من أهمّ ملامح تلك المرحلة وأبرز معالمها، وبالخصوص عندما تصدّى بنو أميّة للحكم الذي حوّلوه من شورى إلى ملكٍ عضوض؛ وهذا الملمح يمثّل إستراتيجية عامّة للدولة الأمويّة، بمعنى أنَّ البعد الإعلامي والديني والثقافي والسياسي كانت النقطة المركزية فيه هي الوضع والدسّ والتزوير والتدليس[2]، وقد كان لهذا الملمح الخطير آثار

---

(١) لم يُدوَّن الحديث إلا في أواخر القرن الهجري الأوّل ومطلع القرن الهجري الثاني، بأمر من حكومة بني أُميّة، فدوَّنوا ما وافق منهجهم، حتى غصَّت الكتب بالروايات الموضوعة المكذوبة، وتلقّفها الناس من أولياء أُمورهم الذين يحرم الخروج عليهم ولو أوجعوا ظهورهم وسلبوهم أموالهم، فما كان منهم إلّا القبول.

(٢) انظر: ضحى الإسلام: ج٢ ص١٢٣؛ السنّة قبل التدوين: ص١٨٨ فما بعد؛ أضواء على السنّة المحمّدية: ص١١٨؛ السلطة وصناعة الوضع والتأويل: ص٨٣.

عظيمة، كان أخطرها إسهامه الكبير في صناعة العقل العامّ والوجدان العامّ لسائر المسلمين، أو قل بأنّه من أهمّ ملامح ومعالم العقل المكوِّن للموروث الروائي.

الملمح الثاني: سياسة (المال والإعلام والسلطة)

إنَّ سياسة الترغيب بالمال والمنصب، والترهيب بالمصادرة والقتل، تعتبر من الملامح البارزة في عصر ما قبل التدوين؛ وقد كان معاوية رائد هذه السياسة ورئيسها[1]؛ فاعتمد على رموز الموروث الإسرائيلي، ممَّن بالغوا في عدائهم ونصبهم لأمير المؤمنين علي عليه السلام؛ وقد كان من خبث سياسات المنهج الأمويّ إضفاء القداسة على أحبار اليهود والنصارى، وعلى تلامذتهم كأبي هريرة؛ لإيهام الأُمّة بصحَّة ما ينقلونه من زور وبهتان[2]، فنشأت أجيال وأجيال على تقديس ثلّة مزوّرة، ما عرف التاريخ ثلّة أكثر شؤماً وفساداً في الأرض منها، كما ربّوا هذه الأجيال على

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج٤ ص٦٣.

(٢) انظر: سير الأعلام: ج٢ ص٢١٦، ص٦٢٧، ص٥٧٨؛ البداية والنهاية: ج٨ ص١٠٣، ص١١٠؛ الإصابة: ج٧ ص٣٥٤؛ الاستيعاب: ج٤ ص١٧٥٨؛ تهذيب التهذيب: ج١٢ ص٢٣٩؛ أبو هريرة شيخ المضيرة: ٩٠.

بغض العترة الطاهرة، وهكذا وقعت الأُمّة في تيهٍ وتضليل، فصار الطلقاء الدُخلاء قادةً للأُمّة وأُمراء، وصار الأُمراء الأُمناء مضطهدين ومعزولين.

وإذا ما انبرى صوتٌ بالحق هدّدوه، وأسقطوه من أعين الناس، وإذا لم يتمكّنوا منه كان الاغتيال بالسمّ في العسل هو المصير، حتّى عُرف عنهم: (لله جنود من العسل)[1]؛ والتاريخ يعيد نفسه مع اختلافٍ يسير في المسمّيات، فاليوم يتحرَّك هذا الثالوث (المال والإعلام والسلطة) في صناعة القادة والسادة، وبين الفريقين معاً.

نعم، لا فرق بين الوضع في مدرسة الصحابة والوضع في مدرسة أهل البيت، ففي الواقع الشيعي يجتمع هذا الثالوث (المال = الخمس)، و(الإعلام = الشياع، الشهرة، المشهور)، و(السلطة الدينية = المرجعية، نائب الإمام الحجة)، ثم يصاغ ذلك بنحوٍ من القدسية، وتوضع عدّة خطوط حمر، فلا تمسّ ذلك المال ولا تطعن بذلك الإعلام وتخدش بتلك السلطة.

وهنا ينبغي أن نؤكّد أنّ هذا الثالوث ليس سلبياً دائماً، فإذا

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق: ج٥٦ ص٣٨٩؛ معجم البلدان: ج١ ص٤٥٤؛ مروج الذهب: ج٢ ص١٣٩؛ وتاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٣٩.

ما وُضع في نصابه فهو الدواء الناجع لهذه الأمّة، وأمّا إذا انحرف عن نصابه وعن مسؤوليّاته فهو الداء والمرض العضال الذي ما بعده داء على الأمّة.

الملمح الثالث: إبدال القيم الإسلامية بقيم الجاهلية

وهذا الأمر الخطير الذي ما التفت له إلّا القلّة من المحقّقين[1]، قد لعب دوراً عظيماً في انحسار الإسلام المحمّدي وإعلاء كعب الإسلام الأمويّ، وإبدال إسلام القرآن بإسلام الحديث؛ لو راجعنا سيرة معاوية خصوصاً وبني أُميّة عموماً نجدهم ما ادَّخروا جهداً في إبدال قيم الإسلام العظيمة بالجاهلية الجهلاء، فبدلاً من الولاء للإسلام استحدثوا الولاء للحكّام، وما تركوا قيمةً للإسلام إلّا وسارعوا في دفنها، حتّى صار شعارهم الخفيّ (لا والله إلّا دفناً دفناً)[2] يمثّل إستراتيجية سياساتهم العدائية العاملة على القضاء على الإسلام والمسلمين، وإبدالهما بأشباح رقمية لا يُفرِّقون بين الناقة والجمل[3].

---

(١) كالشيخ المحقّق محمود أبو ريّة.

(٢) انظر: الموفقيات: ص٥٧٧؛ شرح نهج البلاغة: ج٥ ص١٢٩؛ مروج الذهب: ج٣ ص٤٥٤.

(٣) انظر: مروج الذهب: ج٢ ص٧٢.

وهكذا حملوا للأُمّة إسلاماً منخوراً من الداخل، إسلاماً أمويّاً يفخر بالقتل والغدر والختل، ويستخفّ بالمقتول؛ إسلاماً موتوراً يقتل الأبرار وينعتهم بالخارجين على السلطان، إنّه وبكلّ وضوح (إسلام الفتوحات) الذي حملوه للأُمم، وإسلام الطلقاء، الذي صار فيما بعد إسلام الحديث الأمويّ.

وهذا ما نخافه وما نخشاه على مدرسة أهل البيت، وهو أن تُؤكل هذه المدرسة الطاهرة، من الداخل، فلمّا لم يستطع الأعداء أن يقفوا أمام مدرسة أهل البيت من الخارج بدؤوا ينخرون فيها من الداخل، من بابيّة وبهائيّة، ومن أدعياء المهدويّة، ومن أدعياء الأحلام واللقاء بالإمام الحجّة بن الحسن عليه السلام، وما هذه الأعمال الهدّامة إلّا لأجل تفريغ المذهب من داخله ومحتواه، أو قل: إبدال المحتوى القيمي لمدرسة أهل البيت التي هي مدرسة إسلام القرآن، بترّهات وأكاذيب وخزعبلات، وكأنَّ الإسلام الحقيقي في مدرسة أهل البيت ضعيفٌ وهزيلٌ فجاء هؤلاء القصّاصون والغلاة والكذّابون لتقويته!!!.

الملمح الرابع: تأثير البلدان المفتوحة على الأخبار المرويّة

لا ريب أنَّ البلدان المفتوحة قد تأثّرت بالإسلام تأثّراً عظيماً، ولكنّها قد أثّرت في الإسلام بمقدار عمقها التاريخي

والحضاري، فلم تكن منفعلة بشكل دائم بالإسلام، وإنما كانت فاعلة أيضاً؛ ولذلك تجد الإسلام له أشكال متشابهة وليست منطبقة في البلدان المفتوحة، فالإسلام المشرقي شبيه بالإسلام المغربي ولكن ليس مطابقاً له، كما أنَّ الإسلام الآسيوي شبيه بالإسلام الأفريقي ولكنّه ليس مطابقاً له؛ وليست هنالك أسباب ظاهرة غير الهويّات الحضارية المختلفة، هذا أوّلاً؛ وأما ثانياً: فإنَّ الأثر الحضاري لم يتمكّن من التأثير على النصّ القرآني لكونه مصوناً من التحريف، بخلاف الروايات، التي تأثّرت كثيراً بطبيعة الحضارة واهتماماتها، فالحضارة التي تهتمّ بالمعنويات والغيبيات تلاحظ انبثاق روايات كثيرة منها على ألسن رجال من بيئتها، والحضارة المهتمّة بالفلسفة والحكمة تجد أبناءها مؤثّرين في الروايات ضمن ميولهم، وبقدر اختلاف المدارس الفلسفية تختلف الرؤية حول الإسلام، وهكذا تولَّد عندنا إسلام له ملامح مشّائية، وإسلام له ملامح إشراقيّة، وإسلام له ملامح تركيبيّة، وإسلام له ملامح عرفانيّة، وهكذا.

وأمّا ثالثاً: فإنَّ جميع البلدان المفتوحة لم تكن خلواً من الأديان، ففي الهند وفي الصين وفي إيران مئات الأديان وآلاف الطرق، وهذا كلّه لم يكن بمعزل عن التأثير بإسلام الفتوحات، ولا ريب أنَّ جميع الأديان وإن اختلفت مظاهرها عن الواقع

الإسلامي الجديد إلّا أنّها لم تفقد محرّكاتها ومقوّماتها، لعاملين مهمّين، الأوّل هو قوة الأديان ورسوخها في العقل الباطني لأبنائها، والثاني هو أنَّ الإسلام الواصل إليهم لم يكن أكثر من إسلام الفتوحات، أو إسلام الحديث، ممَّا جعل التسريبات ممكنة جداً، حتّى بلغ الأمر أن تظهر تلك المظاهر الوثنية التي بقيت كائنة في العقل الباطن يتوارثها الأجيال، كالمشي على النيران باسم الشعائر، والاحتفال بأعياد غير إسلامية رمَّموها بروايات موضوعة، وغير ذلك من سلوكيات يظنّها البعض طقوساً دينية.

وعليه فإنَّ عصر ما قبل التدوين قد أسهم في تفاقم حجم الروايات بقدر تأثير تلك الحضارات المستقبلة للإسلام والتي لم تتمكّن من إلغاء تراثها وتقاليدها وضغوطاتها الحضارية ورواسبها الدينية على صياغة النصوص الروائية، وكانت الروايات التفسيرية هي الأكثر سقوطاً في أُتون الزيادة والتغيير.

ومن ملامح عصر ما قبل التدوين أيضاً،أنّه كان عصر العبادة والجهاد والتكوين، وليس عصر العلم والبحث والتحقيق؛ كما أنّه كان عصراً للفتن والمحن، وعصراً تأسيسيّاً لانشطار الإسلام إلى قسمين، إسلام السلطة وإسلام المعارضة؛ ثم انقسم إسلام المعارضة إلى قسمين، إسلامٍ تحصينيّ وإسلامٍ تكفيريّ.

ظروف تكوين الموروث الروائي بعد رحلة الرسول

أوّلاً: إنَّ الأحداث التي وقعت بعد رحلة الرسول الأعظم ﷺ من السنة الحادية عشرة للهجرة إلى عصر تدوين الحديث، كانت أحداثاً جساماً جدّاً، وعلى مختلف الأصعدة الدينية والدنيوية؛ من عقيدةٍ وفقهٍ وسياسةٍ وإدارة، وفتوحاتٍ ومالٍ وثراءٍ بفعل الفتوحات التي بدأت بشكل كبير جدّاً في عصر الخليفة الثاني والحكّام الأمويين، حتّى بلغوا أقاصي الأرض، فجُبيت لهم الأموال وتغيَّرت الأحوال.

ثانياً: ما حصل بعد رسول الله ﷺ من صراعٍ حول الخلافة، وكيفية تعيين الخليفة الأوّل في السقيفة، وكيف عُيِّن الخليفة الثاني بتنصيبٍ من الأوّل، وكيف تطوَّرت الأحداث في زمن الخليفة الثالث، ومن ثمَّ انتقال الحكم بعد أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى بني أُميّة لتتحوَّل الخلافة إلى ملك عضوض.

ثالثاً: إنَّ كلّ تلك الأحداث كانت تحتاج إلى غطاء دينيّ؛ لأنّ الحكم القائم آنذاك كان حكماً دينياً، والحاكم فيه خليفة لرسول الله ﷺ؛ وبالتالي فإنَّ كلّ تلك الموضوعات كانت تحتاج إلى أحكام، وقد ادَّعوا عدم وجود هذه الأحكام في القرآن، لأنَّ الأحكام الفعلية في حقّهم لو راجعوا فيها القرآن لما أمكنهم من الاستمرار؛ لأنّهم لا يستطيعون تغيير القرآن وتوجيهه بالنحو

الذي يحفظ لهم سلطانهم؛ فكان لابدَّ لهم من اكتساب الشرعية والقدسية من مصدرٍ آخر، ولم يكن أمامهم غير غطاء الحديث، فبدأت ظاهرة وضع الحديث، وحيثُ إنّه لم تكن هنالك مدوّنات حتّى يُرجع إليها، ولا يوجد قانون مدوّن ولا مصنّفات مدوّنة، فقد اعتمدوا على ذاكرة الصحابة وحفظ التابعين، وهنا دخل الدسّ والتزوير بأبشع أشكاله وأخطر مضامينه.

وهكذا كان ولا زال ديدن السلطات والحكومات القائمة إلى يومنا هذا؛ وأمامنا جميع البلدان العربية والإسلامية.

لقد حرصت الحكومات على نشر كلّ مذهبٍ داعمٍ لها، ومجابهة واضطهاد كلّ مذهبٍ معارضٍ لها، وهذا التقريب وذاك التبعيد موجود حتّى في الأوساط الدينية، فالموافق والمدافع عن مرجعيةٍ دينيةٍ ما تجده متمتّعاً بكافّة الامتيازات، كما أنَّ المعارض والناقد لها تجده مبعداً من قبلها، بل وكثيراً ما تُغري عوامّ الناس للفتك به أو عزله اجتماعياً؛ وما كان ذلك ليكون لولا الهجرة ـ القسرية والطوعية ـ من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث.

وقد كان سلمان المحمّدي يقول للناس: (هربتم من القرآن إلى الأحاديث، وجدتم كتاباً رقيقاً حوسبتم فيه على النقير والقطمير والفتيل وحبّة خردل، فضاق ذلك عليكم وهربتم إلى

الأحاديث التي اتّسعت عليكم)[1]، وهـذه الروايـة المرويّـة عـن الإمام الباقر عليه السلام تمثّل وثيقة تاريخية خطـيرة جـدّاً، ففـي صـدر الإسلام رجع المسلمون من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث.

وصارت تخرج علينا الفتـاوى التـي لا تجـد لهـا أصـلاً ولا جذراً ولا شبهاً في إسلام القرآن، ولكن تجد لها أرضية كاملـة في إسلام الحديث.

ولذلك نحن نجد أنَّ مهمّة التغيير ليست يسيرة، ولا يمكن أن ينهض بها شخصٌ واحد أو جهةٌ واحدة، بل لابـدَّ أن تتولّـد الإرادة الصلبة والصادقة، ولابدَّ من العمل الدؤوب ودفع الأثمان الباهضة مادّياً ومعنوياً للخروج مـن طائلـة إسـلام الحـديث إلى إسلام القرآن، ومن الله نستمدّ العون، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

تأثير الموروث الروائي السنّي على الموروث الشيعي

استطاع الموروث الروائي لمدرسة الصحابة، المصنوع أمويّاً، والمختَرَق إسرائيلياً أن يخترق الموروث الروائي الشيعي.

وهذه هي أخطر مرحلة مرّ بها الفكر الشيعي، أو قـل: مـن أخطر مراحل تكوُّن الفكر والعقل الشيعي، وهي المرحلـة التـي سُمِح فيها بحرّية نسبية في زمن الإمـام الـصادق لنـشر معـارف

(١) اختيار معرفة الرجال: ج١ ص٧١ ح ٤٢.

مدرسة أهل البيت، فانتشرت أخبار مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

إنّ الكتب الأربعة المعروفة (الكافي، من لا يحضره الفقيه، الاستبصار، التهذيب)، وباقي كتب الصدوق والمفيد والطوسي، كلّها قائمة على موروث روائي معروف عندنا بالأصول الأربعمائة، وهنا يكمن البحث، في كون الموروث الروائي السنّي ـ بمختلف أبعاده الفكرية والعقائدية والسياسية والدينية والتفسيرية والتاريخية، التي تشكَّلت في ظلّ حكومة بني أُمية، وبكثير من الأفواه والأقلام المأجورة والمدسوسة ـ هل تمكَّن من اختراق تلك الأصول الأربعمائة، والجواب: نعم، تمّ اختراقها.

بل، نحن ندعي أنَّ هناك مساحة ليست قليلة من الموروث الروائي الشيعي قد أُصيبت بالدسّ والتزوير والاختراق من الإسرائيليات التي تسرّبت إلينا من خلال الموروث الروائي عند أهل السنّة.

وهذا ما صرّح به سيّدنا الشهيد الصدر حيث قال في معرض بيانه للحاجة إلى الاجتهاد: «إنّه كلّما ابتعد الشخص عن زمن صدور النصّ، وامتدّ الفاصل الزمني بينه وبين عصر الكتاب والسنّة، بكلّ ما يحمله هذا الامتداد من مضاعفات، كضياع جملةٍ من الأحاديث، ولزوم تمحيص الأسانيد، وتغيّر كثير من أساليب التعبير وقرائن التفهيم والملابسات التي تكتنف الكلام، **ودخول**

شيء كثير من الدسّ والافتراء في مجاميع الروايات، الأمر الذي يتطلّب عناية بالغةً في التمحيص والتدقيق»[١].

وهذا ما أكّدته نصوص متعدّدة:

منها: «قال يونس بن عبد الرحمن: وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر الباقر عليه السلام ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام، متوافرين، فسمعت منهم وأخذت كتبهم، فعرضتها مِن بعدُ على أبي الحسن الرضا عليه السلام فأنكر منها أحاديث كثيرة أن تكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام»[٢].

ومنها: «عن هشام بن الحكم، أنّه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان المغيرة بن سعيد يتعّمد الكذب على أبي، ويأخذ كتب أصحابه (أي أصحاب الإمام الصادق عليه السلام) وكان أصحابه (أي أصحاب المغيرة بن سعيد) المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب من أصحاب أبي، فيدفعونها إلى المغيرة، فكان يدسّ فيها الكفر والزندقة، ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى أصحابه، ويأمرهم أن يبثّوها في الشيعة، فكلّ ما كان في كتب أصحاب أبي من الغلوّ فذاك ما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم»[٣].

---

(١) الفتاوى الواضحة: ص٩٦.

(٢) اختيار معرفة الرجال، مصدر سابق: ص٢٤٠، الفقرة: ٤٠١.

(٣) المصدر السابق: ص٢٤١، الفقرة: ٤٠٢.

خلفيات المصادر الثانوية للموروث الروائي الشيعي

لو طالعنا جملة من المصنّفات الروائية الشيعية الثانوية، التي صُنِّفت فيما بعد القرنين الرابع والخامس، من قبيل: (وسائل الشيعة، مستدرك الوسائل للمحدّث النوري، الوافي للفيض الكاشاني، بحار الأنوار للمجلسي)، وهي مصنّفات تعتبر من مفاصل الموروث الشيعي الروائي، سنجدها وبكلّ وضوح قد أضيف إليها على ما جاء في المصنّفات القديمة إضافاتٌ نوعيّةٌ وكمّية، واسعة النطاق، وهذه لم تكن عند السابقين، فما يُنقل في البحار لا نجده عند الطوسي والكليني والصدوق أبداً، فمن أين أتى بها صاحب البحار؟ وهذه معضلة من أهمّ معضلات كتاب بحار الأنوار، وليس هنالك جواب سوى الاعتماد على مجموعة من الكتب التي لا يمكن التحقّق من صحّة نسبتها إلى أصحابها في كثيرٍ من الأحيان. وهناك عوامل أخرى سنتوفّر عليها في الدراسة التفصيلية لهذا البحث.

تأثير التراث الروائي على تشكيل العقل العامّ

وهنا مكمن الخطر، فإنَّ دخول الروايات المكذوبة في التراثين الروائيين السنّي والشيعي قد أسهم إلى حدٍّ كبير في صناعة العقل العامّ للمسلمين، فهو عقلٌ روائيّ وليس عقلاً قرآنياً، أو قل: هو عقلٌ أخباريّ بامتياز.

ولو لاحظنا بعض الخطباء، بل والكتّاب في مدرسة أهل البيت عليهم السلام عندما يروون رواية أو يكتبون كتاباً، فإنّهم لا يتثبّتون في النقل، وإنما يعتمدون مرجعاً روائياً هو كتاب بحار الأنوار بلا توقّف في الأعمّ الأغلب.

وهذا ما نعنيه من تأثير التراث الروائي في تشكيل العقل العامّ، فالتفكير تفكير روائيّ، والسلوكيات روائية، وهكذا تشكَّل عندنا العقل الشيعي في عصورنا هذه.

والكلام هو الكلام عند أهل السنّة، إلّا أنَّ تشكّل عقلها العامّ روائياً بدأ قبل قرون طويلة، فإذا قال البخاري أو مسلم فقد قال رسول الله، حتّى وإن كان القول موضوعاً مدسوساً موبوءاً، فكتاب البخاري أصحّ الكتب عندهم بعد كتاب الله؛ وحيثُ إنّهم من روّاد إسلام الحديث، فلا يبقى عندهم ـ عملياً ـ سوى البخاري ومسلم والمسانيد والسنن، وهذا هو العقل العامّ.

قال البربهاري (٢٣٣ ـ ٣٢٩ هـ)[1] في شرح السنّة: (وإذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر[2] فلا يريده ويريد القرآن فلا تشكّ أنّه رجل قد احتوى على الزندقة، فقم من عنده ودعه)[3]! وقال

---

(١) إمام أهل السنّة والجماعة في عصره، أسماه الذهبي بشيخ الحنابلة القدوة الإمام، القوَّال بالحقّ، داعية الأثر. انظر: سير الأعلام: ج١٥ ص٩٠.

(٢) الأثر هو سنّة الرسول وسنّة الصحابة، أو سنّة الرسول وأهل البيت.

(٣) شرح السنّة: ص١٢٠؛ تحقيق الجميزي.

في مورد آخر ما هو أخطر منه، في شرح السنّة أيضاً: (وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار أو يردَّ الآثار، أو يريد غير الآثار فاتّهمه على الإسلام)[1].

عرض الموروث الروائي على القرآن وردود الفعل

ورد في الأخبار ما يدلّ على ضرورة عرض الروايات على كتاب الله، فما وافق كتاب الله عُمل به وإلّا فيُضرب به عرض الجدار، وهي روايات مشهورة، ولكن القوم تقاطعوا تماماً مع روايات العرض فأبطلوها، لأنها تحطِّم مرجعية الحديث بنحو عامّ ومطلق، كما أنَّ الشيعة لم يعملوا بروايات العرض إلّا في حدود ضيّقة جدّاً، وهي فيما إذا وقع تعارض بين روايتين صحيحتي السند، فإن وافقت إحداها القرآن أخذوا بها وتركوا الثانية.

قال البيهقي في حديث (**إذا جاءكم الحديث عنّي فاعرضوه على كتاب الله**): «هذا حديث باطل لا يصحّ، وهو ينعكس على نفسه بالبطلان، فليس في القرآن دلالة على عرض الحديث على القرآن»[2].

وصرّح ابن عبد البر بـ«أنَّ حديث: (**ما أتاكم عني فاعرضوه**

---

(١) شرح السنّة: ج٢ ص٨٢٦؛ تحقيق: ربيع المدخلي.

(٢) دلائل النبوة: ج١ ص٢٦.

على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فلم أقله)، ألفاظه لا تصحّ عنه عند أهل العلم»، ثم نسب الحديث إلى الزنادقة والخوارج[١]، وقريب منه ما ذكره التابعي السختياني[٢]، ثم جاءت الطامّة على لسان يحيى بن أبي كثير: «السنّة قاضية على القرآن، وليس القرآن بقاضٍ على السنّة»[٣].

عود على بدء

ولا يهولنّك ما عليه مدرسة الصحابة من اهتمامٍ عظيم بحفظ القرآن وتلاوته من جهة، والتغاضي عن معانيه العميقة من جهةٍ أُخرى، فذلك ما كان ولا زال هو المسموح لهم به، وعليه فإنَّ ما يسوقونه من اتّهامٍ تاريخيّ حادّ لمدرسة أهل البيت من قلّة الاهتمام بالقرآن الكريم فإنّهم لا يقصدون أكثر من حفظه وتلاوته، وإلّا فهم قد أقبلوا بجمعهم على الحديث وأعرضوا عن القرآن، بل ومنعوا من تحكيمه في السنّة المرويّة لهم بألسن أمويّة ومحدّثين أمويّين، والشواهد التاريخية على ذلك لا تقلّ حجماً وعدداً عمّا وصل إليهم.

---

(١) انظر: جامع بيان العلم: ج٢ ص٢٣٣

(٢) الكفاية في علم الرواية: ص٣١.

(٣) سنّن الدارمي: ج١ ص١٤٥؛ (باب السنّة قاضية على كتاب الله).

المحور الثالث

إسلام القرآن
وإسلام الحديث

الإسلام العامّ والإسلام الخاصّ

الإسلام العامّ يأتي بمعنى التسليم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١)، فذلك هو الدين العامّ الصادق على كلّ من أسلم وجهه لله تعالى؛ وأمّا الإسلام الخاصّ أو الاصطلاحي، فهو الإسلام الذي بُعث به رسول الله ﷺ، والمشتمل على شريعة مبتنية على منظومة معرفية لها امتيازاتها وخواصّها، فتفترق عن الشرائع السابقة؛ فالمنظومة الإسلامية لها حقول معرفية ومجالات تطبيقية لا تتوفّر على تفصيلاتها ما جاء في المنظومات الدينية السابقة.

ونحن كمسلمين مكلَّفون بالإسلام الخاصّ، بل إنَّ الإنسان في كلّ زمان ومكان بعد البعثة النبوية مكلَّف بالإسلام الخاصّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، فالدين الإسلامي المحمّدي هو الدين المرضيّ لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً...﴾ (المائدة: ٣).

والإسلام بمعناه الخاصّ هو ما عليه مدرسة أهل البيت؛ فنحن لا نعتقد أنَّ مدرسة أهل البيت هي مذهب في قبال

المذاهب الأخرى، وإنّما هي الإسلام بعينه، ولكنّ مدرسة أهل البيت النقيّة من الكذب والتزوير والغلوّ، وغير المحكومة لآراء العلماء والموروث التاريخي والموروث العاطفي الذي شكّل عندها عقلاً عامّاً يقتضي المراجعة والغربلة.

وينبغي أن يُعلم أنَّ مدرسة أهل البيت بما تمتلكه من مقوّمات الإسلام الأصيل هي أقوى بكثير من أن تحتاج إلى بعض هذه النصوص والروايات المكذوبة والخرافيّة.

من هنا يتعيَّن علينا لحفظ ديننا بمذهبه الحقّ أن لا ننساق وراء عالم العاطفة والعصبية والجاهلية، وأن نتمسَّك بالعلم والبرهان؛ قال تعالى: ﴿...**قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة: ١١١)، وأن نقول الحقّ ولو على أنفسنا.

وعليه فلابدّ من العمل على غربلة الموروث الروائي والخروج من حاكمية إسلام الحديث، ولا يُقال إنَّ الحديث خطّ أحمر لا نقترب منه، فإنَّما الخطّ الأحمر هو القرآن الذي: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (فصّلت: ٤٢)، والخطّ الأحمر هم رسول الله وأهل بيته عليهم السلام؛ لأنّهم معصومون، وما عدا ذلك لا يُوجد عندنا خطّ أحمر، ولذلك نحن لا نجد خطّاً أحمر في الصحابة عموماً ولا في أصحاب الأئمّة، فضلاً عن مراجع عصر الغيبة، فضلاً عن

عموم العلماء والرواة وغيرهم.

إنَّ مقولة الخطِّ الأحمر تعني الحجْرَ على العقول، وهي تكبيلٌ عمليّ لعقل المحقّق والمجتهد، وتجميدٌ لجهده العلمي، ولذلك فإنَّ باب العلم والتحقيق والاجتهاد المستدلّ مفتوح، لاسيّما ونحن نمتلك إمكانات علمية أوسع وأعمق ممَّا وُجدت عند السابقين.

هويّة القرآن الكريم والسنّة الشريفة

القرآن الكريم هو الكتاب الوحياني النازل على قلب النبي محمّد صلى الله عليه وآله، والمؤلَّف من (١١٤) سورة مؤلّفة من مجموعة آيات مباركة؛ يبدأ بسورة الحمد وينتهي بسورة الناس، وهو كتاب مصون عن التحريف مطلقاً، زيادةً ونقصاً[١].

وإجماع الأمّة قائم على ذلك[٢]، هذه هي عقيدتنا في القرآن، فمن ادَّعى غير ذلك فهو ممَّن لا يستحقّ الخطاب.

وأمّا المراد من الحديث فإنّه: كلّ ما نقل إلينا عن رسول الله

(١) يُمكن مراجعة كتاب (صيانة القرآن من التحريف)، للسيد كمال الحيدري.

(٢) الاعتقادات في دين الإمامية: ص٥٩، رقم (٣٣)؛ البيان في تفسير القرآن: ص٢٠١؛ تهذيب الأصول، تقرير بحث السيد الخميني: ج٢ ص١٦٥.

من أقواله وأقاريره، وأفعاله وأخلاقه وصفاته، ومن أيّ شيء مرتبط به نُعبّر عنه بالحديث، وفي مدرسة أهل البيت تتّسع هذه الدائرة لتشمل أقوال وأفعال وأقارير المعصومين عليهم السلام؛ وعليه فكلّ ما نُقل عنهم عليهم السلام نسمّيه بالحديث.

إسلام القرآن وإسلام الحديث في الواقع العملي

يشتمل القرآن الكريم على منظومة المعارف الدينية؛ فإذا ما أردنا البحث في العقيدة نجدها في القرآن، وما نريده من أخلاق وفقه وتاريخ وقصص الأنبياء، والسياسة والإدارة وغير ذلك نجده في القرآن الكريم بصورة إجمالية؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، والكلام هو الكلام في الروايات، فهي الأُخرى تشتمل على منظومةٍ معرفيةٍ كاملةٍ تشتمل على جميع المعارف الدينية، وبصورة تفصيلية، وبالتالي صار عندنا منظومةٌ دينيةٌ معروضةٌ إجمالاً في القرآن، وتفصيلاً في السنّة.

وهنا ينبغي أن نطرح سؤالاً في غاية الأهمّية، وهو: إنَّ هاتين المنظومتين ـ القرآنية والروائية ـ هل هما مستقلّتان إحداهما عن الأخرى، أم إنَّ إحداهما أصل والأخرى فرع؟ أم إنَّ إحداهما أصل والأخرى يُرمى بها عرض الجدار؟

الاتجاهات الثلاثة في تحديد العلاقة بين النصّ القرآني والموروث الروائي

للإجابة عن السؤال السابق طُرحت ثلاثة اتجاهات.

الاتّجاه الأوّل: الاكتفاء بالقرآن وحده لا غير

وأصحاب هذا الاتّجاه هم القرآنيون الذين يرون ضرورة الالتزام بالقرآن وحده، بمعنى الاكتفاء به كمصدر وحيد لجميع المعارف الدينية؛ نظراً لاعتقادهم بأنَّ ما وصلهم من السنّة محفوفٌ بالشكّ وبالوضع والدسّ، فتعذّر عليهم القبول بذلك.

الاتّجاه الثاني: الاكتفاء بالحديث وحده لا غير

يرى أصحاب هذا الاتّجاه أنَّ المرجعية للحديث وحده، نظراً وعملاً عند الأخباريين، وهو اتّجاه يُقابل الاتّجاه الأوّل تماماً في تحديد المرجعية المعرفية في تشكيل المنظومة الدينية. قال المحدّث الاسترآبادي: «ومن المعلوم أنّ حال الكتاب والحديث النبوي لا يعلم إلّا من جهتهم عليهم السلام، فتعيّن الانحصار في أحاديثهم عليهم السلام ـ كما سيجيء تحقيقه إن شاء الله تعالى ـ»[1].

والسؤال هنا: ما هو دور القرآن عند أصحاب الاتّجاه الثاني؟.

وهنا يوجد فريقان من علماء الإمامية، وهما:

---

(١) الفوائد المدنية: ص٥٩.

الفريق الأوّل: الاتّجاه الأخباري؛ وهو الاتّجاه الذي أسقط القرآن من الاعتبار؛ لأنّه حجّة لمن خوطبوا به، وهم النبيّ والأئمّة عليهم السلام، وهذا الاتّجاه الأخباري يُمكن أن نطلق عليه باتّجاه المحدّثين؛ ومن روّاده شيخ المحدّثين الصدوق، والعلّامة المجلسي والشيخ البحراني والاسترابادیان، وغيرهم[1].

وهذا الاتّجاه الموجود في الوسط الشيعي موجود هو الآخر في الوسط السنّي أيضاً، ففي الوسط السنّي هنالك إمام المحدّثين والأخباريين وهو أحمد بن حنبل؛ وهذا الفريق من الاتّجاه الثاني: هو ما نطلق عليه بإسلام الحديث من الطراز الأوّل.

الفريق الثاني: الاتّجاه الأُصولي: الذي يرجع للقرآن عند وقوع التعارض في الروايات فقط ؛ فالمرجعية الواقعية للحديث وحده؛ ولكنّه في بعض الأحيان يقع تعارض بين الأخبار الصحيحة السند، ولا مرجّح لأحدهما سوى العرض على كتاب الله، فما وافق الكتاب منها عُمل به وما لم يُوافقه ضرب به عرض الجدار.

فالفريق الثاني من الاتّجاه الثاني يقولون بعرض الحديث على القرآن ولكن في مورد التعارض بين الروايات الصحيحة السند

---

(١) يُراجع كتاب: (الظن ... دراسة في حجّيته)، للسيد كمال الحيدري: ص٣٠٨.

فقط، وهنا فقط يظهر دور القرآن، فالحديث عندهم هو الأصل والمحور، وأمّا القرآن فالحاجة له فرعيّة جدّاً؛ وهذا الفريق الثاني هم ما نطلق عليهم بأصحاب إسلام الحديث من الطراز الثاني، الذين هم أنفسهم أصحاب الاتّجاه الأصولي الذين يعتمدون علم أُصول الفقه في عملية استنباط الحكم الشرعي.

إلى هنا اتّضح أنَّ الفريق الأوّل يُسقط القرآن عن الاعتبار تماماً، والفريق الآخر يُعطي للقرآن اعتباراً محدوداً عند التعارض، وأمّا موقفنا نحن من ذلك كلّه فهو الرفض تماماً للاتّجاه الأوّل، وللاتّجاه الثاني بفريقيه معاً.

الاتّجاه الثالث: محوريّة القرآن ومداريّة السنّة

وهو الاتّجاه الذي نؤمن به، فالقرآن هو المحور والمصدر الأصلي في جميع معارفنا الدينية، بل هو المصدر الأوّل والأخير فيها، فلا يقع في قباله أيّ شيء آخر في تشكيل وتبيين الأطر والقواعد والأسس والقوانين الدستورية في المنظومة الإسلامية، وأمّا الحديث أو السنّة فتأتي في طوله وفي ظلّه.

من هنا نجد ضرورة عرض الروايات على القرآن لمعرفة مدى مطابقتها وموافقتها لتلك الأطر والقواعد والأسس والقوانين الدستورية القرآنية التي شكّلت البنى الأساسية في

المنظومة الإسلامية، وهذا هو إسلام القرآن.

ما نعتقده في السنّة هو أنَّ دورها في التقنين في ضوء تلك الأُسس والقواعد والقوانين الدستورية القرآنية التي شكَّلت البنى الأساسية في المنظومة الإسلامية؛ ولذا لابدَّ من تشكيل فقهاء في الدستور القرآني قبل تشكيل فقهاء الرواية، فإذا ما أفتى فقهاء الرواية بشيءٍ عرضوه على فقهاء الدستور القرآني لمعرفة مدى المطابقة؛ وهذا هو باختصار ما نسمّيه بإسلام القرآن في قبال إسلام الحديث السائد في جميع أوساطنا العلمية والدينية.

المبرّرات التاريخية لمحورية السنّة

وهنا سنوجز أهمّ المبرّرات التاريخية لمحورية السنّة، وهي:

أوّلاً: المبرّر السياسي

بعد إقصاء العترة الطاهرة عليهم السلام من مواقعهم الإلهية في الإمامة والقيادة، وفصلهم عن الأُمّة، كان لذلك الفعل ردود فعل كثيرة من قبل أتباع مدرسة أهل البيت، وهي التمسّك بأهل البيت في جميع التفاصيل، فنشأ الاتّجاه الروائي في الوسط الشيعي باعتبار أنَّ المُنتج لأهل البيت في ذاكرة المتلقّي هو الروايات.

الثاني: المبرّر الاجتماعي

إنَّ عودة الأتباع والأصحاب للعترة الطاهرة عليهم السلام في أُمور

دينهم ودنياهم قد خلق جوّاً عامّاً لحاكمية السنّة، بمعنى الانسياق العام الذي أخذ طابعاً اجتماعياً ولَّد الاتّجاه الروائي.

الثالث: المبرّر الديني

ما أبداه الأتباع والأصحاب من الطاعة الكبيرة لأهل البيت عليهم السلام قد جعلهم لا يخرجون عن إطار الرواية؛ ظنّاً منهم بأنَّ هذا الأمر هو المطلوب، وأنّه لا شيء مطلوب غيره.

الرابع: المبرّر المعرفي

إنَّ انتشار الخبر المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّما يعرف القرآن من خوطب به**»[1]، أوجد مناخاً مُلزماً بمتابعة أهل البيت في كلّ مفردة دينية، ورسَّخ عندهم انحصار فهم القرآن بالرواية، مع أنّهم عليهم السلام قد كانت سياستهم المعرفية قرآنية صرفة، وهي السياسة الداعية للتفكّر والتدبّر؛ تبعاً لقوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (محمد: ٢٤).

خامساً: المبرّر النفسي

كان الرجوع لأهل البيت عليهم السلام يوفّر الاطمئنان لهم على وضعهم الديني، ولذا تجد بعض الأصحاب يسأل من العترة حتّى في الأُمور الواضحة؛ تحصيلاً للاطمئنان النفسي، وهذا

---

(١) فروع الكافي: ج٨ ص٣١٢ ح ٤٨٥.

الأمر جيّد في حدِّ نفسه، إلّا أنَّ هذا الاعتياد خلَّف أجواءً أملت على أهلها متابعة الأخبار لا غير.

مصداق تطبيقي للعرض على القرآن

روى الكليني رحمه الله بسند صحيح عن صفوان بن يحيى قال: «سألني أبو قرّة المحدث أن أُدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك، فأذن لي، فدخل عليه، فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتّى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرّة: إنّا روينا أنّ الله قسّم الرؤية والكلام بين نبيّين فقسم الكلام لموسى ولمحمد الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: **فمن المبلِّغ عن الله إلى الثقلين من الجنّ والإنس: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾، و﴿لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ أليس محمد؟** قال: بلى. قال: **كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله فيقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾، و﴿لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ثم يقول أنا رأيته بعيني وأحطت به علماً وهو على صورة البشر؟! أما تستحون؟! ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي من عند الله بشيءٍ ثمّ يأتي بخلافه من وجه آخر؟!** قال أبو قرّة: فإنّه يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، فقال أبو الحسن عليه السلام: **إنَّ بعد هذه الآية ما يدلّ على ما رأى؛ حيث قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، يقول: ما كذب فؤاد**

محمد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، فآيات الله غير الله، وقد قال الله: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾، فإذا رأته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة، فقال أبو قرّة: فتكذّب بالروايات؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: **إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذّبتها؛ وما أجمع المسلمون عليه أنّه لا يحاط به علماً ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء»**[1].

فالإمام يستنكر ويقول: كيف يعقل أنّ رسول الله يأتي إلى الناس بقرآنٍ يقول لا تدركه الأبصار وهو يقول رأيته بعيني وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر، فقال أبو قرّة: فتكذّب بالروايات.

وهنا محلّ الشاهد الذي يثبت به إسلام القرآن، فالإمام لم يقبل بالروايات التي تتنافى مع القرآن، فيقول له:**«إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذّبتها»**، وهذا هو إسلام القرآن؛ فالقرآن هو المرجع في التصحيح.

---

(١) أُصول الكافي: ج١ ص٩٥ ح ٢. وهذه الرواية يقول عنها العلّامة المجلسي بأنّها صحيحة السند. انظر: مرآة العقول: ج١ ص٣٢٨. وأمّا الآيات: والآية الأُولى: «الأنعام: ١٠٣»؛ والثانية: «طه:١١٠»؛ والثالثة: «الشورى: ١١»؛ والرابعة: «النجم: ١٣»؛ والخامسة: «النجم: ١١»؛ والسادسة: «النجم: ١٨».

ولذلك فنحن لا نكذّب رسول الله ﷺ، وإنما نكذّب الرواية المنسوبة له، إذ لا يجرؤ مسلم عاقل على تكذيب النبي ﷺ، ولكن لنا أن نكذّب الرواية المرويّة عنه إذا كانت مخالفة للقرآن، فالتكذيب يقع على الرواية وليس على رسول الله ﷺ.

فالقاعدة العامّة في قبول الرواية أو ردّها هي الموافقة للقرآن، فلا يقل أحد: هذه رواية صحيحة السند فاعملوا بها، وتلك رواية ضعيفة السند فاتركوها؛ فهذا هو إسلام الحديث الحاكم في أوساطنا العلمية، والمخالف لروايات العرض، وبعبارة أصحّ: مخالف لإسلام القرآن.

من هنا نوجّه خطابنا للمسلمين كافّة، من الشيعة والسنّة، فنقول: لا يغرّنّكم نقل رواية، ولو كانت منقولة في الكتب الأربعة أو في الصحيحين أو السنن الأربعة أو المسانيد المعتبرة، فالكتاب مهما كان عظيماً وجليلاً فإنّه ليس مقياساً للقبول أو الرفض، كما أنَّ الراوي مهما كانت وثاقته فهو ليس مقياساً أيضاً لذلك؛ وإنّما المقياس الحقيقي هو العرض على القرآن الكريم؛ أو قل: العرض على دستور الإسلام؛ وكلّ فقرة تخالف ذلك الدستور فهي ساقطةٌ عن الاعتبار.

ونقولها بضرسٍ قاطع: لا تخشوا تكذيب روايةٍ ولو كانت مرويّة عن رسول الله ﷺ، فذلك تكذيب للخبر وليس تكذيباً

لرسول الله ﷺ.

إذن نحن نعتقد بالسنّة الشريفة، ونعتقد بضرورة العمل على طبقها، ولكنّنا نشترط في رتبةٍ سابقةٍ موافقتها لدستور الإسلام، وهو القرآن الكريم.

المحور الرابع

مفاصل المشروع الإصلاحي

أرضية المشروع الإصلاحي

يمكن تصوير أرضية المشروع الإصلاحي بأُمور ثلاثة، وهي:

الأمر الأوّل: الإرادة الفعلية للخروج من التقليد الأعمى لنظريات محفوفة بسطوة النفوذ العلمائي؛ فإنّه بدون هذه الإرادة الصلبة لن نتقدَّم خطوة واحدة.

الأمر الثاني: الاعتقاد الراسخ بدستورية القرآن، والخروج من التصوّر الساذج الذي زرعته ذهنيّات المحدّثين في ذاكرة المسلمين.

الأمر الثالث: اكتمال الأدوات المعرفية التي تُمكِّننا من استجلاء النظريات القرآنية التي ستكون هي الحكم الفصل في قبول الأخبار أو ردّها.

مفاصل المشروع الإصلاحي

وهنا مكمن البحث الحقيقي الفاصل بين إسلام القرآن وإسلام الحديث، والذي سنوجز فيه أهمّ المفاصل الأساسية لإسلام القرآن من جهة، ولمعرفة واقعنا الفعلي في حواضرنا

العلمية من جهة ثانية؛ أمّا المفاصل المنظورة فهي اثنا عشر مفصلاً، سنكتفي بعرض عناوينها تاركين بياناتها والتفصيل فيها للكتاب التفصيلي، وهي:

المفصل الأوّل: الاعتقاد بجمع القرآن وتدوينه في عهد النبي صلى الله عليه وآله.

المفصل الثاني: ضرورة الوقوف على الحقبة التاريخية التي تلت حياة الرسول صلى الله عليه وآله والتي امتدت إلى العصر الأمويّ.

المفصل الثالث: حاكمية العقل والقرآن، وأنَّ السنّة دورها تبييني وتقنيني وتفصيلي لما جاء فيهما.

المفصل الرابع: الالتزام بقاعدة محورية القرآن ومدارية السنّة.

المفصل الخامس: ضرورة تحصين الموروث الروائي بالعرض على القرآن، فما وافقه قُبل وما عارضه رُدّ.

المفصل السادس: معالجة التضادّ في الروايات.

المفصل السابع: الفصل بين معنى الرواية وفهم الراوي.

المفصل الثامن: الفصل بين الرؤيتين العلمائية والقرآنية.

المفصل التاسع: ضرورة تحديد هويّة المرجع الديني.

المفصل العاشر: تحديد هويّة الاجتهاد.

المفصل الحادي عشر: التنوّع المعرفي.

المفصل الثاني عشر: التحرّك المؤسَّساتي.

أئمة أهل البيت روَّاد المشروع الإصلاحي

وهذا ما نعتقد به اعتقاداً راسخاً لا يتزلزل أبداً، فإنَّ أهل البيت عليهم السلام بصفتهم القرآن الناطق وتراجمة القرآن هم روّاد المشروع الإصلاحي، أو قل: روَّاد مشروع التمسّك بالقرآن الكريم، وقد مرَّ بنا المصداق التطبيقي للعرض على القرآن في رواية أبي قرّة وحديثه مع أبي الحسن الرضا عليه السلام، وكيفية تكذيب الإمام للرواية؛ كما مرَّ بنا قول الإمام الباقر عليه السلام الذي قدَّم لنا فيه نموذجاً تعليمياً وتطبيقياً لضرورة العودة للقرآن والأخذ منه، وهو قوله عليه السلام: «**إذا حدّثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله**»[1].

وبالتالي فإنَّ ما ندعو له ليس بدعاً ولا استحداثاً في الدين، وإنّما هو الدين بعينه، هو ما كان عليه رسول الله والأئمّة الطاهرون عليهم السلام، الذين ما انفكُّوا عن الكينونة مع القرآن، ولكنّهم ابتلوا بأُمَّة مزَّقها السلطان، وصنع منها آذاناً صاغية لأقوال القسّيسين والأحبار، فكان الناس أُمَّة وكان الرسول وأهل بيته أُمّة، وكان للناس إسلام الحديث والرواة، وكان لأهل العصمة إسلام القرآن؛ ونحن في ذلك لا نختار على الجنّة شيئاً أبداً، فنعلن تمسّكنا بإسلام القرآن، وذلك هو الحقّ؛ قال تعالى:

---

(١) أُصول الكافي: ج١ ص٦٠ ح ٥.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ...﴾ (الكهف: ٢٩).

موقفنا من نظرية (حسبنا كتاب الله)

ذكرنا أنَّ الاتّجاه الأوّل قائلٌ بمحورية القرآن ورفض السنّة الشريفة، وهذا الاتّجاه قد يبدو موافقاً للوهلة الأُولى للمقولة التاريخية القائلة بـ(حسبنا كتاب الله)، وهي المقولة التي نرفضها جملةً وتفصيلاً، وبنحوٍ أشدّ من رفضنا لنفس الاتّجاه الأوّل؛ وذلك لأنّنا نعتقد أنَّ الاتّجاه الأوّل إنّما يُنكر السنّة المحكيّة لا السنّة الواقعية، في حين إنَّ أصحاب المقولة العمريّة (حسبنا كتاب الله) ينكرون السنّة الواقعية، بمعنى أنّها إقصاء تامّ للسنّة الشريفة، فقد قيلت هذه الكلمة في حضرة النبيّ ﷺ؛ ولم يكن هدفها التشكيك بالسنّة المحكيّة عن رسول الله بل التشكيك والطعن في نفس السنّة الواقعية.

فلا يُقال بعد ذلك إنَّ ما نلتزم به من إسلام القرآن هو تعبير آخر عن الاتّجاه الأوّل أو تعبير عن تلك المقولة التي تقصي دور السنّة الكامن في التبيين؛ فنحن نعتقد بدورها، ولكنّنا لا نراها مصدراً مستقلّاً عن القرآن، ولا في قبال القرآن، وإنّما هي مصدر في ظلّ القرآن، وهدفها ودورها الحقيقي بيان تفاصيل ما أجمله

القرآن، فالقرآن نزل فيه كلّ شيءٍ دينيٍّ إجمالاً، والسنّة تعرَّضت له تفصيلاً؛ وهذا هو الموافق لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

القرآن رائد المرجعية الإسلامية

وهذا ما ينبغي أن نؤمن به كإيماننا بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وهو أن يكون القرآن الكريم، المُنزَّل بياناً للناس، رائداً للمرجعية الدينية الإسلامية، وحيث إنَّ المرجعية الدينية القرآنية عنوانٌ جامعٌ لكلّ الطوائف الإسلامية، فهي ليست نجفيّة أو قمّيّة، كما أنّها ليست أزهرية أو زيتونية، وهي ليست مكّية أو مدنيّة؛ وإنّما هي مرجعية إسلامية خالصة، بعيدة عن الدوائر الضيّقة والعقول المُدجَّنة، والاجتهادات المُؤدلجة؛ لأنّها مرجعية القرآن، أو قل: بأنّها مرجعية الإسلام، بل قل: هي مرجعية الإنسان.

إنَّ القرآن القاضي بمعارفه ومسالكه على جميع ما تقدَّم عليه في الأديان، إنّما جاء ليكون بياناً للناس، أي أنّه بيان للإنسان؛ وهذا هو ما سيُؤسِّس لدولة العدل الإلهي، دولة القرآن، وولاية القرآن، فلا مجال لقيام دولة إلهية لا تقوم على إسلام القرآن.

من هنا ندعو وبكلّ شفافيّة ووضوح إلى قيام مرجعية دينية إسلامية، أُفقها فوق جميع آفاق المذاهب والأديان، يقف على قمَّة

هرمها المرجع الديني الإسلامي الصادق عليه هذا العنوان.

كما ندعو جميع العلماء والفضلاء والمفكّرين إلى المشاركة الفعَّالة في صياغة الأُسس التي تتحرَّك في ضوئها هذه المرجعية القرآنية، وفي ظلّ القرآن وما يصحّحه لنا القرآن من تراثنا الروائي، بالإضافة إلى حاكمية العقل القطعي والاطمئناني.

ونحن بقدر حرصنا على مشاركة الجميع من جميع حوزاتنا وأروقتنا العلمية، من الشيعة والسنّة معاً بلا فرق يذكر، فإنّنا لن نقف مكتوفي الأيدي فيما إذا تلكَّأ المخاطبون بذلك، فنحن ماضون بكلّ ما أُوتينا من قوّة وتوفيق للخروج بهذه الأُمّة من حالك ظلمتها، ومتعرِّجات سلوكيّاتها، ومن انقساماتها، وتشرذمها، إلى آفاق القرآن الجامعة لكلمة الأُمّة، وهي الكلمة الحقَّة والكلمة المجاهدة، لا يفتّ في عضدنا تخلّف ركب، ولا تشكيك متزلزل، ﴿...**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّه وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّه يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّه وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (المائدة: ٥٤).

نعم، ماضون وكلمتنا الجامعة لكل المُستجيبين لهذا المشروع الإصلاحي المبارك، مهما قلَّ عددهم، وقلَّت حيلتهم، وضعُفَ مقُامهم عن أهل الحلّ والعقد، الذين ما عقدوا حقّاً ولا حلّوا باطلاً، نقول لأبنائنا ولجميع الأصوات المُلبّية لهذا المشروع الإصلاحي الجامع ما قاله سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«أيّها الناس! لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله، فإنَّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير، وجوعها طويل؛ أيّها الناس! إنّما يجمع الناس الرضاء والسخط ؛ وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾، (الشعراء: ١٥٧)؛ فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة، خوار السكّة المحماة في الأرض الخوّارة؛ أيّها الناس! من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه»[١].

وهل هنالك شيء أكثر وضوحاً من القرآن الكريم؟ وهل هنالك شيء أكثر نوراً منه؟ وهل هنالك كتاب أكثر جامعيّة منه؟ وهل هنالك شيء أكثر بصيرة منه؟!.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّه عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّه وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨)، والقرآن هو بصرنا وبصيرتنا التي ننفتح بها على العالم أجمعين.

ونقول لجميع المناوئين والمشكّكين والمتزلزلين، والمتضرِّرين من اجتماع الأُمّة على من سواهم، الذين ما عاشوا إلّا لكي:«**يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع ...**»[٢]، نقول لهم:

---

(١) نهج البلاغة: ج٢ ص١٨١ رقم:(٢٠١).

(٢) نهج البلاغة: ج٢ ص١٨١ رقم:(٢٠١).

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (فاطر: ٤)، ولنا أُسوة بسيّدنا ونبيّنا رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ وعترته الطاهرة عَلَيْهِمُالسَّلَامُ، فكم لاقوا من تكذيبٍ وتشكيكٍ وتعذيبٍ وتشريد، والعاقبة للمتّقين.

ثمرات المشروع الإصلاحي

لهذا المشروع الإصلاحي الكبير ثمراتٌ كثيرةٌ وعظيمة، سوف نحاول إيجازها في المقام، تاركين بيان تفاصيلها لكتابنا التفصيلي في ذلك، وهي كالتالي:

● الرجوع إلى الإسلام الصحيح، المتمثّل بإسلام القرآن، وعرض ما نحن عليه من إسلام الحديث.

● الانفتاح على المعارف القرآنيّة، واستخراج النظريات الموجِّهة لحركتنا الفكرية والعملية.

● تنقية تراثنا الروائي والتفسيري من غائلة الدسّ والوضع والتزوير، وما أصابه من إسرائيليات.

● ترشيد البحث الروائي من خلال الضابط القرآني، أو قل: إرجاع المسائل التفصيلية في مجالها الروائي إلى جذرها القرآني، للتخلّص من الانطباع الشخصاني الذي يتركه قارئ النصّ على سير الرواية، وهذا من أهمّ مواطن الترشيد.

● إعادة تأهيل العقل العامّ الـذي صـنعه إسـلام الحـديث، والإسهام في تحويل الواقع من واقع منفعل إلى واقع فاعل.

● الكشف عن الأسرار القرآنية التي أُغلقت أبواب الانفتاح عليها بحجَّة إرجاعها إلى أهلها.

● عدم السماح بسَوْق الأُمّة يميناً وشمالاً نتيجة الاعتماد على المساحات الروائية الدخيلة على الموروث الروائي.

● الوقوف أمام الإسلام الأمويّ القاضي على القرآن والسنّة الموافقة له، أو قل: الوقوف أمام الغثّ الذي دسَّه أحبـار اليهـود والنصارى والصابئة والمجوس.

● الكشف عن أهليّة الباحثين والمحقّقين في مجـال المعـارف الدينية، وذلك من خلال تفحّص نتاجهم القرآني النافع.

● غلق الأبواب أمام الترويج الفوضوي للدين، المعتمد على التناقضات الروائيـة، وذلـك مـن خـلال الالتـزام بنـصوص لا اختلاف عليها ولا تنـاقض فيهـا، قـال تعـالى: ﴿أَفَـلاَ يَتَـدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَـوْ كَانَ مِـنْ عِنـدِ غَـيْرِ اللّهِ لَوَجَـدُواْ فِيـهِ اخْتِلاَفـاً كَثِـيراً﴾ (النساء: ٨٢).

وهنالك أكثر من عـشرين ثمـرة نرجـو أن نُوفَّـق لعرضـها تفصيلاً في الدراسات القادمة.

المحور الخامس

دور العلماء والنخب والأمة
في إنجاح المشروع

دور العلماء في إنجاح المشروع الإصلاحي

لا ريب أنَّ هذا المشروع الإصلاحي لا يُمكن أن يبلغ مبتغاه بعيداً عن الدور العلمائي المنظور فيه، لأنّه مشروع تحقيقيّ من الطراز الأوّل، كمّاً ونوعاً، شكلاً ومضموناً؛ وبالتالي فنحن وإن كنّا قد أعلنّا التصدِّي لإحياء إسلام القرآن فينا، إلّا أنَّ الجانب التحقيقيّ والتطبيقيّ فيه لا يُمكن تحقيقه بدون الاستعانة بمجموعة غير قليلة؛ لأنّه مشروع مؤسّساتي وليس مشروعاً فردياً، كما سيأتي بيانه في المحور الأخير من هذا الموجز.

إذن فهنالك دوران للعلماء والفضلاء من طلبة العلم في إنجاح هذا المشروع، الأوّل يكمن في الإسهامات التحقيقيّة، والثاني يكمن في الإسهامات التطبيقيّة، ولا ينبغي التنبيه إلى ضرورة التروّي في نقد هذا المشروع، إذ عليهم قراءته والتأمّل فيه قبل الخوض في التشكيك فيه، فإنَّ كلّ خطوة بالاتّجاه الآخر قد تسهم ـ بقدرها ـ في إيجاد هوَّة بين المشروع وإنجازه، فيكونون ممَّن أعان على الظلم واستمراره، ومن باب الذكرى التي تنفع المؤمنين عموماً والعلماء خصوصاً نذكّرهم بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)؛ وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**الخير كلّه فيمن عرف قدر نفسه**»[١]؛ وعن الكفعمي: «**من عرف قدر نفسه لم يهنها بالفانيات، ومن خاف العقاب انصرف عن السيّئات، ومن لم يقدّم إخلاص النية في الطاعة لم يظفر بالمثوبات، ومن أسس أساس الشرّ أسّسه على نفسه، ومن سلَّ سيف البغي عمد في رأسه**»[٢].

دور النُخب المُثقَّفة في إنجاح المشروع

وهنا يكمن الدور التكميلي في نقل وتقريب المشروع الإصلاحي للأُمّة، فالدور ليس دوراً علمائياً صرفاً، وإنّما هنالك مساحة كبيرة ينبغي أن يتحرَّك في ضوئها الأكاديميون والنُخب المثقّفة، ولعلّ أهمّ فقرة في هذا الدور التكميلي تكمن في تقديم قراءة منصفة والترويج الإعلامي الهادف، فنحن لا نريد إمَّعيات سلبيّة الفهم والدور في هذا المشروع، وإنّما لابدَّ من الفهم الصحيح المركَّز، على مستوى التحقيق والتطبيق للعلماء، وعلى مستوى الممارسة العملية والترويج الهادف للنُّخب؛ وهنالك دور آخر ينبغي أن ينهض به الأكاديميون والنخب المثقّفة، وهو دور

---

(١) تنبيه الخواطر: ج٢ ص١١٥.

(٢) محاسبة النفس: ص٧٩.

التحصين للأُمَّة من ردود الفعل الخاطئة التي يُتوقَّع أن يقوم بها أصحاب إسلام الحديث، ونعني بالتحصين هو أن يشرعوا بتفهيم الأُمّة ما هم عليه من أخطاء تاريخية ارتكبها إسلام الحديث، ولابدّ من العمل على استيعاب الأُمّة على مختلف توجّهاتهم ومشاربهم، ولا نعني بالاستيعاب ممارسة عملية التدجين الموروثة، وإنّما المراد هو إعطاء المقابل الفرصة الكاملة للتعبير عن نفسه ثمّ التركيز على الثغرات الكثيرة التي تحفّ بإسلام الحديث.

دور الأُمّة في إنجاح المشروع الإصلاحي

وهنا تكمن العلّة الماديّة بحسب تعبير سيّدنا الأُستاذ الشهيد الصدر قدس سره، فإنَّ عمل العلماء والنخب المثقّفة وإن كان عظيماً ومفصلّياً إلّا أنّه لا يخرج عن عمل الأفراد، وقبله يوجد عمل أُمَّة، وعمل الأُمّة هو العلّة الماديّة لجريان السنن التاريخية، قال قدس سره: (المجتمع يشكّل علّةً ماديّةً لهذا العمل، أي أرضية العمل، لحالة من هذا القبيل يعتبر هذا العمل عملاً تاريخيّاً ويعتبر عملاً للأُمّة وللمجتمع، وإن كان الفاعل المباشر في جملة من الأحيان هو فرداً واحداً أو عدداً من الأفراد، ولكن باعتبار الموج يعتبر المجتمع، إذن العمل التاريخي الذي تحكمه سنن التاريخ هو

العمل الذي يكون حاملاً لعلاقة مع هدف وغاية ويكون في نفس الوقت ذا أرضيّة أوسع من حدود الفرد، ذا موج يتّخذ من المجتمع علّة ماديّة له وبهذا يكون عمل المجتمع، وفي القرآن الكريم نجد تمييزاً بين عمل الفرد وعمل المجتمع...)[1].

ونحن في ضوء المعطيات الآنفة الذكر نُعطي للأُمّة مساحة عظيمة في إحداث التغيير، ولا نريد لها أن تكون ـ كما أُريد لها من قبل ـ منفعلةً فاقدةَ الإرادة، فتلك أُمّة الإسلام الأمويّ، وإنّما نحن نريد من الأُمّة أن تكون أُمّة القرآن، أو قل: أُمَّة إسلام القرآن، أُمَّةً فاعلةً متحرِّكةً قادرةً على التعبير عن إرادتها، أُمَّةً تساهم في صنع مستقبلها، وهذا ما كُنّا دعونا له ولا زلنا ندعو له في الارتقاء بالأُمّة إلى مستوى التفقّه في الدين، أي: التفقّه بالمعنى العامّ، فلا نُريد أُمَّةً لا تعرف ماذا يراد بها، فتلك أُمَّة الهمج الرعاع الذين ينعقون وراء كلّ ناعق، وإنّما نُريد أُمَّةً تعيش همَّ التغيير وتحمل أداة السؤال في الكشف عمَّا تجهل؛ فذلك هو مقتضى إسلام القرآن، إسلام العلم والتنوير وليس إسلام الجهل والتعتيم؛ وبئست الأُمّة إذا كانت ترزح في براثن الجهل ثمّ تأنس به، ونعمت الأُمّة التي تجعل طلب العلم والمعرفة شعاراً لها، وقد

---

(١) المدرسة القرآنية: ص٧٧ ـ ٧٨.

قال إسلام القرآن: ﴿...**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ (الزمر: ٩)، وما دام الإنسان ينتمي إلى العقل والعقلاء فينبغي أن يكون من أُولي الألباب، وهذا ما يريده منّا إسلام القرآن.

المسؤولية الدينية والتاريخية تجاه المشروع الإصلاحي

فإذا ما أدرك العلماء دورهم التحقيقيّ التطبيقيّ، وأدرك الأكاديميّون والنُخب دورهم التحصيني والترويجي الهادف، وأدركت الأُمّة ضرورة الاستجابة بالتفحّص عن الحقّ والتمسّك به. إذا تحقّق كلّ ذلك، نكون قد نهضنا جميعاً بمسؤوليتنا الدينية والتاريخية تجاه هذا المشروع الإصلاحي، مشروع العلماء والفضلاء والأكاديميّين والنُخب، ومشروع الأمّة أيضاً.

وأمّا إذا تنصّل ـ والعياذ بالله ـ أحد هذه المفاصل عن أداء وظيفته فإنّه سيكون قد أحدث خللاً عظيماً في أرضية إنجاح المشروع، وتخلَّف عن أداء تكليفه الواقعي في ضرورة الرجوع إلى إسلام القرآن، إسلام محمد وآل محمد، إسلام بلا تدجين، وبلا ترويع، إسلام بلا مصالح فردية قاتلة؛ ولا ريب أنّنا ندرك حجم المسؤولية وما تتطلّبه من تضحيات ماديّة ومعنوية، فإنَّ هذا

المشروع العظيم مشروعٌ تعبويٌّ وتوعويٌّ وتضحويّ، إنّه مشروع المسؤولية وليس مشروع الامتيازات، و﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾ (الجاثية: ١٥).

المحور السادس

مسائل في الصميم

توجيه الوجدان الشيعي

ينقسم الوجدان الشيعي إلى وجدان عامّ وآخر خاصّ، والعامّ: هو ما عليه عامّة الناس، والخاصّ: هو ما عليه الأعمّ الأغلب من العلماء والحوزات العلمية، لاسيَّما في عصورنا هذه.

وحقيقة الوجدان العامّ: هو عبارة عن تشكّلات وتراكمات يسودها المناخ العاطفي، والتقليد الأعمى، وأما مساحة العقل والتفكّر والفهم فمحدودة جدّاً؛ ولذلك فإنّك بمجرّد أن تُواجه أحداً منهم بخطأ في عقيدة أو في شريعة هو عليها ينفجر بوجهك غاضباً، ومتّهماً إيّاك بأبشع التهم؛ إنّه وجدان عاطفي مسوق عبر التاريخ في مسلَّات حزائنيّة وبُكائيّات مؤلمة ومظلوميّات عميقة، صار الأُنس بها ملاكاً لا انفكاك عنه؛ فالشيعي كثير البكاء قليل الفرح؛ أو قل: إنّه عميق العاطفة قليل التدبّر.

وأمّا الوجدان الخاصّ فإنّه يتشكَّل من أمرين، هما:

الأوّل: هو الاستجابة للوجدان العامّ نفسه، فتجد الكثير من العلماء يغضّون الطرف عن تصرّفات غير شرعية، قد أُلصقت بالدين زوراً وبهتاناً، فإذا ما سُئلوا عن ذلك يُجيبون بعموميّات أو بقيود تكشف - إلى حدٍّ كبير - حجم الخشية التي

يعيشونها، كما أنَّ البعض منهم يُجامل كثيراً في تأييد هذه التصرّفات طمعاً بجاه وجلباً لمال.

الثاني: هو تعميم جزئيّة مهمّة من الدين على الدين، وهي جزئية الأحكام الشرعية؛ فيصوِّرون لأنفسهم ولأتباعهم أنَّ الدين هو الأحكام الشرعية، وبالتالي فإنّهم يتعاطون مع الأُمّة من خلال تلك الجزئيّة باسم الدين كلّه؛ مع أنّهم لا يعكسون الدين كلّه؛ وبالتالي فإنَّ وجدانهم لا يُشكِّله الدين وإنّما تلك الجزئيّة المهمّة بمعيّة الأمر الأوّل الآنف الذكر.

من هنا يتعيَّن علينا توجيه هذا الوجدان بقسميه، أمّا الوجدان العامّ فنحن لا ندعو إلى إلغائه بل نحن نصرُّ على بقائه، ولكن لابدَّ من عقلنته وتقنينه؛ لابدَّ أن تخرج الأُمّة من حالة الانسياق الأعمى إلى الاستجابة العاقلة. وهذه المهمّة العظيمة ينبغي أن ينهض بها العلماء والمثقّفون والنُخب، من خلال نشر ثقافة القراءة وثقافة المتابعة وثقافة النقد.

وأمّا توجيه الوجدان الخاصّ فهو مهمّة العلماء بالدرجة الأولى، من ناحية ملء المساحات الفارغة منذ قرون من الزمن، فلابدَّ من ظهور المرجع الديني الموافق للاصطلاح، ولا يصحُّ الاكتفاء بالمرجع الفقهي، كما أنَّه من مهمَّة الفضلاء من الطلبة والأساتذة والمثقَّفين والنُخب أيضاً بالدرجة الثانية، وذلك من

ناحية عرض الواقع الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي على جميع المتصدّين للمرجعيّة الدينية؛ لحثّهم على الاستجابة العملية لمتطلّبات الواقع الجديد في نواحيه المختلفة، فإن استجابوا جميعاً ـ وهو المطلوب والمأمول ـ قوّوا أواصر الأُمّة بهم، وإن لم يستجيبوا جميعاً ـ وهو غير متوقّع ـ نصحوهم وحذّروهم من العواقب الوخيمة، وإن استجاب البعض دون الآخر صار لازماً على الفضلاء والنُخب عموماً ربط الأُمّة بقادتها الحقيقيّين.

قاعدة (ليس كلّ ما يُعرف يُقال)

اتُّخذت هذه القاعدة حجّةً تُبرَّر من خلالها الكثير من الأخطاء، فإذا ما خرج مصلح في الأُمّة وأراد الكشف عن زيفٍ ما، قُوبِل بموجةٍ عنيفةٍ من الرفض والتعنيف، وإذا ما واجههم بالحقيقة وما هم عليه من أخطاء، أجابوه بعذرٍ أقبح من الذنب نفسه، وهو قولهم المأثور: ليس كلّ ما يُعرف يُقال.

ولكي يصحّ منهم ذلك فإنّه ينسبون هذه القاعدة إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام، حيث يروى عنهم: «**ما كلّ ما يُعلم يُقال، ولا كلّ ما يُقال حان وقته، ولا كلّ ما حان وقته حضر أهلُه**»[1]؛ وهو من

(١) مختصر بصائر الدرجات: ص٢١٢؛ ونقله عنه العلامة المجلسي في البحار: ج٥٣ ص١١٥؛ ولم نعثر عليه في مكان آخر من كتب الحديث،

المراسيل، يحمل مضموناً جليلاً، ولكن لا يصحّ الاستدلال به في كلِّ قضية، فلو توقّف إنقاذ الأُمّة على عرض مفاسد أخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية، فهل نحجم عن ذلك انصياعاً لمقولة (ليس كلّ ما يُعرف يُقال)؟.

لو وجدنا الواقع الديني متردّياً والمتصدِّين للمواقع العليا فيه ليسوا بمستوى المرحلة ـ فضلاً عن أن يكونوا بمستوى الدين نفسه ـ فهل نسكت عنهم عملاً بهذه القاعدة؛ وإذا كان الضرر بالإفصاح أقلّ من الضرر الواقع جرَّاء الكتمان فهل نقدِّم القاعدة ونصمت؟.

إنّها مقولةٌ فيها حقٌّ كثير، ولكن يراد بها باطل، فهي ممَّا يصدق عليها قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في الخوارج لمّا سمع قولهم: لا حكم إلّا لله، فأجابهم بكلمته التاريخية الخالدة: «**كلمة حقّ يراد باطل. نعم، إنّه لا حكم إلّا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلّا لله؛ وإنّه لابدَّ للناس من أمير ...**»[1]؛ ونحن نقول أيضاً: إنّها كلمة حقّ يراد بها باطل، وإنّه لابدَّ من إظهار الحقّ وإبطال الباطل، وما نحن فيه ممَّا يجب فيه أن يُقال ويُقال.

وهو من المراسيل.

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٩١ رقم (٤٠).

نعم، نحن نؤمن كثيراً بالقاعدة النبوية بأن نُكلِّم الناس على قدر عقولهم، فذلك هو ديدن العقلاء، ولكن من هو الذي يحدِّد أنَّ هذه الفقرة مشمولة للقاعدة وتلك غير مشمولة، فهل يصحُّ أن نحتجَّ بهذه القاعدة في كلِّ صغيرة وكبيرة؟.

وعليه لابدَّ من الفصل في هذه الأُمور، ولذلك نحن نرى أنَّ المعارف الدينية لابدَّ أن تكون عامَّةً وشاملةً للأُمَّة، فالقرآن الكريم الحاوي للأخبار الغيبيّة والأسرار الإلهيّة يُعبِّر عن نفسه بقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨)، لابدَّ أن تعرف الأُمّة أنَّ المتصدِّين لأُمور دينهم هل هم حائزون على الشروط الأساسية أم فاقدون لها؟ وهل هم أهل للمرحلة المعاشة أم أنّهم غير واقفين عليها، فلا يصدق عليهم العارف بزمانه لا تهجم عليه اللوابس؟ وهل إنّهم يُسهمون في رفعة الأُمّة وعزّتها وحفظ كرامتها أم إنّهم غير ذلك؟ هذه الأسئلة وغيرها لابدَّ للأُمَّة أن تحصل على إجابات واضحة فيها، ولا ينبغي للأُمّة أن تُخدع بمقولتهم الإسكاتية ـ ليس كلَّ ما يُعرف يُقال ـ تلك المقولة التي غالباً ما تُساق بشكلٍ ظالم للأُمّة، ومبخسٍ لحقوقها، فلا يصحُّ أن تكون معياراً، كما أنَّ مقولة (لا حكم إلّا لله) مقولة حقّ يُراد بها باطل، ولا يصحُّ أن تكون معياراً لترك الحكم وإخلاء الساحة من القادة.

سياسة التعتيم ليست قرآنية

من ديدن القرآن ودأبه: العمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١)، فلا يُبقي الناس على العمى والتردّي في جهالات الماضي، وهذا هو مقتضى البعثة النبوية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، وقريب منه ما جاء في سورة الجمعة؛ وهذا هو ديدن القرآن، وهذه هي وظيفة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فمن أين جاء القوم بسياسة التعتيم، ورفع شعار موهوم مفاده (دع الناس في غفلاتهم)؟.

إنَّ هذا الشعار الأمويّ الظالم، والداعي إلى نشر الجهل أو السكوت عنه قد نسبه البعض إلى رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فالله تعالى يقول له وظيفتك أن تذهب إلى الأُمِّيّين لتتلو عليهم الكتاب وتزكّيهم من الأمراض المعنوية وتعلّمهم الكتاب والحكمة، وقد أمرنا الله تعالى بالاقتداء والتأسّي به؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١)، ولكنَّ هؤلاء الذين لا يرجون الله واليوم الآخر يُربّون الناس على إبقاء الناس على غفلاتهم.

إنَّ هذا الحديث المفترى الذي لم يروه أحد غير ابن أبي جمهور الأحسائي عن النبي ﷺ أنّه قال: (ذروا الناس في غفلاتهم يعيش بعضهم مع بعض)[1]، ثم جاء أصحاب الغثّ الكثير والسمين القليل فرووه لنا وجعلوه قاعدة أخلاقية وسلوكية؛ مع أنَّ أصل الحديث هو كما رواه الشيخ الطوسي عن ابن بشران عن إسماعيل بن محمد الصفّار عن جعفر بن محمد الورّاق عن عاصم عن قيس بن الربيع عن سفيان بن عيينة عن أبي الزبير عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا يبع حاضر لباد، دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض**)[2]؛ وهو ما رواه أصحاب الصحاح والسنن عن جابر[3].

وبعد البحث والتحقيق وجدنا أنّ هذه المقولة البائسة من الموضوعات والمفتريات على رسول الله ﷺ، حيث دسَّه البعض في حديث وخَتَمَهُ بإمضاء أمويّ مفضوح وهو (رواه مسلم) أو (جاء في الصحيحين)، والرسول ﷺ ومسلم النيسابوري منه براء، ولا ندري متى كان أعلام الشيعة يستدلّون بحديث مسلم ويعملون برواياته؟.

---

(١) عوالي اللألي: ج٢ ص٢٤٦ ح ١٥.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ص٣٩٦ ح ٢٧.

(٣) راجع: سنن الترمذي، كتاب البيوع، ح ١٢٢٣؛ مسلم، كتاب البيوع، ح ٢٠.

قال ابن عابدين: (والذي في الفتح: **دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض**، ونقل الخير الرملي عن ابن حجر الهيثمي أنَّ بعضهم زاد: دعوا الناس في غفلاتهم، ونسبه لمسلم. قال: وهو غلط لا وجود لهذه الزيادة في مسلم، بل ولا في كتب الحديث)[١].

قال العلجوني: (وقوله: في غفلاتهم، زادها ابن شهبة وعزاها لمسلم، واعترضه غيره بأنّها ليست في مسلم، بل ولا في غيره...)[٢].

والغريب أنَّ البعض عندما يمرّ بالحديث المروي عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بعدما قيل له: لو سعَّرت لنا سعراً فإنّ الأسعار تزيد وتنقص، فقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**ما كنت لألقى الله تعالى ببدعة لم يحدث إليّ فيها شيئاً، فدعوا عباد الله يأكل بعضهم من بعض، وإذا استنصحتم فانصحوا**»[٣]، يُعلِّق في الهامش قائلا: (ولعلّ المراد أنّه إن سأل منكم سائل سعر الوقت وقدره وشاور معكم فانصحوه وإلّا فدعوا الناس في غفلاتهم وجهالاتهم ينفع بعضهم من بعض)[٤]! ليعكس لنا ذلك الجوّ التعتيمي الخانق، وهو ما كان يُروِّج له المُتقدِّمون ورسَّخه الأمويّون ليديم لهم الحكم من جهة،

---

(١) حاشية ردّ المحتار: ج٥ ص٢٢٤.

(٢) كشف الخفاء: ج١ ص٤٠٦ رقم:(١٣٠٤).

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٢٦٨ ح ٣٩٦٩.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٢٦٩.

وليدلِّسوا على الأُمّة كما يشتهون. فالأُمّة قد حرصوا على تربيتها على الجهل وتركهم في غفلاتهم؛ وكأنّهم هم وأذنابهم في العقيدة وفي الطريقة عندما يقرأون قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، يرون أنّ وظيفتهم إبقاء الناس على ذلك الضلال المبين.

من قداسة الشخص إلى قداسة النصّ

إنَّ الاحتكام إلى قداسة الشخص على حساب قداسة النصّ من أسوأ ما تركه لنا إسلام الحديث، فيه صار وعّاظ السلاطين، وبه نما علماء السوء، وبه تخلَّفت الأُمّة، ولذلك ما يجب الالتزام به هو قداسة النصّ وليس قداسة الشخص، ونحن عندما نتمسّك بقداسة الرسول وأهل بيته عليهم السلام وندافع عن ذلك، فذلك لأنّهم ذوات معصومة تقتضي التقديس، كما أنّها ذوات تخلَّقت بخلق القرآن، والقرآن مقدّس، فهم القرآن الناطق.

وعليه فلا يصحّ من أحد أن يحتكم إلى قداسة شخص على حساب قداسة النصّ، فنقول له: قال الله وقال الرسول، ويقول لنا: قال فلان، وقد سُئل ابن عباس عن أمر ـ ننقل فكرته ـ فقال كنّا على عهد رسول الله نفعله، فيُجيبه السائل: ولكنَّ فلاناً

حرَّمه، فيجيبه ابن عباس ممتعضاً: أقول: قال الله وقال الرسـول، ويقول لي: قال فلان!.

موقفنا من الروايات الضعيفة السند

بعد أن اتّضح أنّ المرجع الأساسي لتـصحيح الأخبـار هـو القرآن الكريم، فما هو الموقف من الروايات الـضعيفة الـسند إذا كانت موافقة للقرآن؟.

والجواب عن ذلك: إنَّ كلّ رواية ثبت أنّها موافقـة للقـرآن نقول بصحَّة مضمونها لا بصحَّة سندها، فلو سـألنا سـائل هـل الرواية الموافقة للقرآن تكون صادرة من المعصوم عليه السلام؟ بمعنى: أنَّ صحَّة المضمون تلازمها صحَّة الصدور؟ والصحيح في المقام هو لا ملازمة بين الصحَّتين، ولهذا نقـول عـن الروايـة الموافقـة القرآن: بأنّها من حيث الصدور بين النفي والإثبات، أي: يمكن أن تكـون صـادرة ويُمكـن أن لا تكـون كـذلك؛ لأنَّ الروايـة الضعيفة السند تحتمل أن يكون الواضع لها قد وضعها منسجمة مع القرآن، ولعلّه سمعها ولكنّ الراوي كان غير موثّـق؛ وعليـه فنحن لا ندّعي صدورها مـن المعـصوم عليه السلام، وإنّـما نقـول بـأنَّ مضمون الرواية صحيح لا غير، وصحَّة المضمون شيء وصـحَّة الصدور شيء آخر.

المحور السابع

الإصلاح بين سلطة المال وسلفيّة الفكر الديني

مسؤولية المصلحين

إنَّ أعظم مصيبة أصابت تراثنا الروائي يوم تسلَّط بنو أُميَّـة على مقاليد الحكم، فحوَّلوا الإسلام من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث، وكان لابدّ للعلماء من إظهار علمهم وإبطال مـدّعيات بني أُميّة، وهذا مـا فعلـه أئمّـة أهـل البيـت عليهم السلام، حيـث كـانوا يذكِّرون الناس بالقرآن وبرسول الله صلى الله عليه وآله، وبصَّروا الأُمّة بـدور العلماء العدول القائمين على حفظ الشريعة، فأُولئك طـوبى لهـم وحسن مآب؛ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**طوبى للذين هـم كما قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **يحمل هذا العلـم مـن كلّ خلـف عـدولُه، وينفـون عنـه تحريـف الغـالين، وانتحـال المبطلـين، وتأويـل الجاهلين**»[1].

وفي الحديث دلالة على أنَّ هذا الدين سوف يصاب بآفـات خطـيرة، ومنهـا آفـات الغـالين؛ ولـذا نبَّـه صلى الله عليه وآله إلى أنَّ العلـماء العدول دورهم يكمن في نفي تحريف الغالين، وانتحال المبطلـين الذين ينتحلون الحقّ، أو يلبـسون لبـاس الحـقّ وهـم مـن أهـل الباطل، ويدفعون تأويل الجاهلين، وفي ذلـك تنبيـه إلى خطـورة

---

(١) معاني الأخبار: ص٣٥؛ مشكاة المصابيح: ج١ ص٨٢ ـ ٨٣.

أدعياء العلم، من قبيل أحبار اليهود الذين كانوا يستغلّون جهل الناس بأخبار الماضين فيشدّون انتباهم ببعض القصص المثيرة ثمّ يدسّون سمومهم وغشّهم في القصص.

إذن هنالك ثلاث فئات، هم: المغالون، والمبطلون، والجاهلون. ولو راجعنا تراثنا الروائي سنجد أنَّ الدسّ والتزوير والوضع والتحريف إنّما جاء من خلال هذه القنوات الثلاث، وهنا تكمن مسؤولية المصلحين في الكشف عن المغالين والمبطلين والجاهلين.

التصحيح من الداخل أم من الخارج

ينبغي أن نسأل بإنَّ العمليّة النقديّة التي نوجّهها إلى تراثنا الديني والعملية التغييرية الإصلاحية، هل هي منبثقة من داخل مدرسة أهل البيت فتكون لصالح المدرسة، فتقوّي بناءها وترسّخ أسسها، وتثبّت استحكاماتها؛ أم هي حركة نقدية منبثقة من خارج المدرسة فيكون مرادها تضعيف المدرسة، والتشكيك فيها؟.

إنَّ القراءة المنصفة لجميع ما طرحتُه في إعلامنا الإسلامي على امتداد أكثر من عشر سنوات في مجال الفكر والعقيدة بالدرجة الأساس كان يصبُّ في ترسيخ بُنى وأُسس هذه المدرسة المباركة، وما خضناه من حروبٍ ومواجهاتٍ شرسة مع المنهج

الأمـويّ شـاهد حـيّ وقريـب عـلى ذلـك؛ وقـد كـان مقتـضى الموضـوعية أن نـستفيد مـن جميـع الأدوات النقديـة للـتراث الإسلامي؛ انطلاقاً من اعتقادي الكبير بـضرورة قيـام مرجعيّـة إسلامية وليست مرجعيّة مذهبيّة.

كما أنّنا نعتقد بأنّ أيَّ مدرسة مهـما بلغـت مـن القـوّة فـإنَّ السنن التاريخية تقتـضي إصـابتها بآفـاتٍ وآفـات، وهـذه نقطـة مركزية ينبغي الالفات لها، فلو لاحظنا جميع الشرائع الـسماوية ـ وهـي أهـمّ مـا عنـدنا ـ نجـدها قـد أُصـيبت بالانحرافـات والتأويلات، حتّى خرجت عن الصراط المستقيم، نتيجة إصابتها بتلك الأمراض الخطيرة؛ وهذا ما يُبرّر لنا تاريخياً تكـرّر الـشرائع من زمن إلى آخر، فلو لم يحدث الانحراف وتـدبّ الأمـراض في الشريعة السابقة فإنّه لا معنى لمجيء الشريعة اللاحقة.

ولا إشكال ولا شبهة في أنَّ هذه المدرسة المباركة قد وقعت بعد الأئمّة عليهم أفضل الصلاة والسلام بيد المجتهدين، والمجتهدون قد يُصيبون وقد يُخطئون، وهنـا تـدخل الـسنن التاريخيـة الآنفـة الـذكر، بمعنـى تعرّضـها لتلـك الأخطـاء، مـن تـأويلات، بـل وانحرافات نتيجـة دخـول الوضـع والـدسّ والتـدليس بـشكل مباشر أو غير مباشر، وبأيدٍ من داخل المدرسة أو مـن خارجهـا، فالنتيجـة الحتميـة هـي تعـرّض تراثنـا الروائـي والتفـسيري إلى

تأوّلات وانحرافات تستدعي المراجعة والتصحيح، وحيث إنّنا لا ننتظر نبيّاً جديداً ولا شريعة جديدة فإنّه يتعيَّن على العلماء العدول دفع تمحّلات المغالين وانتحالات المبطلين وإبطال جهالات الجاهلين.

وهذا ما نقوم به بالضبط؛ انطلاقاً من مسؤوليتنا الشرعية تجاه أنفسنا وديننا وتجاه الأُمّة؛ فهي عملية نقدية تصحيحية من داخل الاطار لا من خارجه.

أهداف العملية التصحيحية

مرّت بنا في بحث (ثمرات المشروع الإصلاحي) عدّة أُمور وثمرات أساسية، منها الرجوع إلى الإسلام الصحيح المتمثّل بإسلام القرآن، إضافة إلى ثمرات أُخرى ذكرناها وأُخرى أرجأناها للتفصيل، وهنا نريد ترسيخ الفكرة قرآنياً، فنحن لو راجعنا القرآن الكريم بوصفه أعظم مشروع إصلاحي في تاريخ البشرية، وسألناه عن أهداف عمليته الإصلاحية والتصحيحية، فإنَّ الجواب الفصيح الصريح، الذي لا يخفى على أحد، هو أنّه إنّما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وعليه فما نعتقده اعتقاداً راسخاً هو أنَّ المشروع الإصلاحي إذا لم يكن منطلقاً من ذلك الهدف التصحيحي القرآني فإنّه مشروعٌ بحاجةٍ إلى مراجعة وتصحيح.

هذا هو إجمال الهدف التصحيحي، وأمّا تفاصيله فإنّه ينقسم إلى:

أوّلاً: أهداف أساسية ورئيسية.

ثانياً: أهداف فرعية.

وسوف نتعرّض للشيء اليسير منها في هذا الموجز تاركين التفصيل لدراسة مقبلة.

إنَّ من أهم الأهداف الأساسية: أنّ طبيعة الحركة العلمية الاجتهادية ـ تبعاً لمجريات السنن التاريخية ـ سوف تصاب بترهّل، فعندما انطلقت الشريعة المحمّدية واستمرّت في حياة الأئمّة عليهم السلام إلى أواسط القرن الثالث من الهجرة ـ فترة غيبة الإمام الثاني عشر من أئمّة أهل البيت ـ فإنّه إلى ذلك التاريخ لا توجد مشكلة أساسية، وإن كانت هناك بعض المشاكل والآفات. ولكن المشكلة الحقيقية إنّما بدأت وتعاظمت وتفاقمت عند شروع زمن الغيبة، حيث انطلقت الحركة الاجتهادية، وهي عملية عظيمة بحدّ ذاتها، ولكنّها لم تكن تكتمل آلياتها، ولذلك كان الاعتماد الأساسي فيها هو الرواية، وحيث إنَّ الرواية قد ابتليت في بعض مفاصلها بالدسّ والوضع والتزوير فإنّهم وقعوا في إشكاليات خطيرة، كان من جملتها تقديم إسلامٍ روائيٍّ يتضمّن إخفاقاتٍ كثيرة، وقد حال أعلامنا على مرّ القرون تقديم

معالجات ثريّة لمواجهة مدّ إسلام الحديث وترشيده، وقد حقَّقوا نجاحات مهمّة، ولكنّها لم تكن كافية لقوّة المدّ الروائي، فصار عندنا إسلامٌ روائيٌّ يُعرف بالأخباريين، وإسلام روائيّ النزعة أُصوليّ الشكل.

ومن الواضح أنَّ كلّ عملية اجتهادية بصفتها تمثّل نتاجاً بشرياً محدوداً فإنّها تبقى معرَّضة للوقوع في الخطأ، وهذه قضية أساسية. فإذا قبلنا هذا الأصل، فإنَّه سيتضح أنّ ما يقوله علماء أيّ مدرسة لم تثبت عصمتهم سيكون معرَّضاً للخطأ، وهذا أمر متسالم عليه عند الجميع.

وأمّا الأصل الآخر فهو أنّه لا يمكن لأيّ مجتهد ـ مهما بلغ من النبوغ والقوّة العقلية والعلمية ـ أن يغطّي بآرائه ونظريّاته القرون اللاحقة له إلى مئات السنين فضلاً عن الآلاف؛ نظراً لتغيّر الموضوعات وتجدّد المستحدثات، وهذه هي طبيعة الحياة القائمة على أساس التجدّد والتطوّر الذي يعيشه العقل الإنساني.

وقد مرَّ بنا سرّ تجدّد الشرائع الإلهية، فكيف باجتهادات الإنسان المجبولة على الخطأ والتغيّر من زمان لآخر.

إذن فالبشرية في كلّ مرحلة، تحتاج إلى ما يغطّي احتياجاتها، ولا يمكن حتّى للشريعة الإلهية أن تكون قادرة على تقديم شريعة لكلّ الأزمنة، وأمّا ما نحن عليه من شريعة الخاتم، فإنّها

قد أُعطيت من الزخم ما يضمن لها الحفاظ على رونقها، وهـذا لم يتحقّق بوجود النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وحده، وإنّما احتاج الأمر إلى تنـصيب اثني عشر إماماً، لتكون الشريعة قادرةً على الاستجابة لمتطلّبـات البشرية إلى أن يـرث الله سـبحانه وتعـالى الأرض ومـن عليهـا، وحيث إنّنا افتقدنا المعصوم القادر على تقـديم الحلـول الناجعـة لكـلّ عـصر، وحـلّ محلّـه الاجتهـاد البـشري فإنّـه سيـصاب بإخفاقات حادّة، وإن كانت ثمراته نافعة، وإلّا بقيت عاجزة عن الاستجابة لجميـع متطلّبـات الحيـاة الجديـدة، ولـذلك فهنالـك قـصورٌ حـادٌّ في النظريـة الإسـلامية الـسياسية والاقتـصادية والاجتماعية والإدارية، بل وحتّى التربوية، ولعلّ في كلمة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنّهم مخلوقون لزمـان غير زمانكم**»[1]، ما يشير إلى ذلـك. فالعمليـة التربويـة في تجـدّد مستمرّ، ولا يمكن إقسار كلّ جيل على تراث جيـلٍ سـابقٍ عـلى المستوى التربوي الثابت نسبيّاً فكيف بغيره؟.

نعم، عندما يدخل الاجتهاد على النصّ الديني سوف يُغـيِّر من مسارات هذا النصّ، وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ أيّ مدرسة مهما بلغت من القوّة والقدرة والمنعـة والنبـوغ، فـإنَّ اجتهـادات

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج٢٠ ص٢٦٧ ح ١٠٢.

علمائها الآنيّة ستصل إلى مرحلة ما ثمّ يتجاوزها الزمن، ممَّا يعني أنَّ مرور الزمن سوف يؤدّي إلى تزلزل الاجتهادات التي بنيت عليها المدرسة، فتحتاج إلى استحكامات جديدة، وإلى تقوية متانة أخرى نضيفها، لكي تتحقّق المواكبة، أو قل: لكي نحصل على قراءة جديدة، وهذا هو ما نُريد أن نصل إليه في هذا المضمار.

نحن نعتقد أنَّ مدرسة أهل البيت بأمسّ الحاجة إلى دماء جديدة، واجتهاد جديد، وقراءة جديدة، لاستعادة القوّة والاستحكام لأسس مدرستنا العظيمة، وأمّا الذين لا يرون تغييراً في هذه المدّة الماضية فذلك لأنّهم لم يخرجوا عن أدواتهم المعهودة، والتي يقرأون بها جميع تفاصيل الدين!، بل إنّهم يقرأون الدين بكلّ آفاقه من خلال زاوية محدودة جدّاً تسمّى بالفقه والأُصول.

هذا هو الهدف الأوّل الذي أوجزناه، تاركين تفصيله لأوانه.

وأمّا الهدف الثاني فهو أنّنا عندما وجّهنا نقوداتنا لابن تيمية تناولناه من خلال تراثه الروائي، فأبطلنا بناءه بإبطال تراثه الروائي، نظراً لوجود الدسّ والكذب والخداع الكبير في تراثهم الروائي، فكان من ثمرات نقد تراثه الروائي: إسقاط فكر وبناء ابن تيمية؛ وعليه فإذا تصوّرنا وجود مثل ذلك الغشّ الروائي أو بعضه في تراثنا الروائي أيضاً فإنَّه سيمكن لأيّ أحد يجيد أدوات

النقد أن يُوجّه لنا نقوداتٍ حادّةً ويعمل على تضعيف مدرسة أهل البيت؛ ولذلك فقد أردنا من خلال توجيه النقودات إلى تراثنا الروائي حماية تراثنا من تلك الأمراض، ونزع السلاح من يد الأعداء؛ وعليه لا يعود بإمكان أيّ أحد، بلغ ما بلغ من العلم أن يواجهنا بهذا السلاح، وسيبقى عاجزاً تماماً أمام منهجنا النقدي الذي نتبنّى فيه إسلام القرآن بدلاً من إسلام الحديث؛ لأنّه لا يمكنه بعد ذلك أن يحتجّ علينا برواية مخالفة للقرآن لأنّها بحسب منهجنا ساقطة من الأساس، أو قل: لا موضوع ولا موضوعية لها، وأمّا إذا أراد أن يحتجّ علينا برواية موافقة للقرآن فإنّه يكون قد أسقط نفسه، وهذا واضح.

موانع الحركة التصحيحيّة

إنَّ من أهم موانع أيّ حركة تصحيحيّة، وأيّ قراءة جديدة لأصول أيّ مدرسة من المدارس الفكرية والعقدية والثقافية أو التفسيرية وغيرها هي حاكمية سلطة السلف في تلك المدرسة، وسلطة السلف هذه عادة ما تكون محاطة بهالة كبيرة من القدسية، وتكون محوطة بعشرات ومئات الخطوط الحمر، وكأنّك تقف أمام سدرة المنتهى التي لا يبقى عندها من ذات الواقف شيئاً!.

فإذا ما حاول أحدٌ الاقتراب من تلك الخطوط الحمر المفتعلة فإنّه لابدَّ أن يقصى، ولابدَّ أن يُتَّهم، ولابدَّ أن يُقال فيه

كلُّ شيء، وهذه هي المشكلة الأُولى والمانع الأوّل، وهو أخطر وأسوأ الموانع، فإذا استطعنا أن نتجاوز هذه المشكلة، مشكلة هيمنة سلطة السلف على عقولنا ـ مع احترامنا الشديد للسلف، فإنّه له احترامه وله رأيه وله قيمته ولكنّه يبقى عاجزاً عن بيان خارطة الطريق إلى قيام الساعة، بل لا يمكن ذلك لأيّ عقل بشري ـ فإنّنا سوف نكون قد حقَّقنا منجزاً كبيراً.

ولعلّ من غرائب الأُمور: أنّنا نقرأ للشيخ المفيد نقودات لاذعة جدّاً للشيخ الصدوق الذي لا تفصله فاصلة كبيرة، بل هو من تلامذته، وهو مع ذلك لا يجد في الصدوق شخصيّة العالم، وإنّما هو في نظره مجرد محدّث وليس صاحب صنعة، بمعنى أنّه لا يقبل أن يعمل بفهم الشيخ الصدوق للدين رغم الفاصلة الزمنية الضئيلة جدّاً، فكيف يُراد منّا أن ننصاع لفهم الصدوق والمفيد والطوسي والحلّي والأنصاري والآخوند، الذين يفصلنا عن أقربهم ـ على أقلّ التقادير ـ قرن من الزمن؟!!!.

بعبارة أُخرى: إنَّ سلطة السلف لابدَّ أن تبقى للسلف وليس للخلف، وهذا ما تناولناه في بحوث المدخل للفتاوى العقائدية[1].

فإذا لم نخرج من سلطة السلف سوف نبقى ندور في رحى

---

(١) كتاب (مدخل إلى الفتاوى العقائدية)، في طريقه للطبع.

السيّد الفلاني والمرجع الفلاني كما بقي السابقون جامدين على آراء الشيخ الطوسي لمائة عام، يدورون في رحاه[1]، وكأنَّ الشيخ الطوسي قد أسَّس الاجتهاد لنفسه ومنعه عليهم، فما كانوا يجرأون على تجاوزه في الصغيرة والكبيرة، حتّى منَّ الله تعالى عليهم بفقيه أعاد لهم شرف الاجتهاد، وهو الشيخ الفقيه العالم ابن إدريس الحلّي[2]، الذي لاقى الويلات في حركته التصحيحيّة من سلطة السلف، وما جرَّ عليه الخروج عن أفكار السلف واجتهادات السلف. والتاريخ يُعيد نفسه، حيث لازلنا نسمع ونطالع نفس الاتّهامات لمجرّد إطلاقنا مشروع إسلام القرآن التصحيحي، ولاريب أنَّ هذا الـمُستهجن لا يعود على مدرسة أهل البيت إلّا بالضعف والهوان، ونقول لهم: لن نسمح بفترة سبات طوسية جديدة، وإنَّ إسلام القرآن سيطرق بيوتكم وأروقتكم.

وعلى أيِّ حال، فقد كان لذلك الجمود التاريخي من الآثار السيّئة الكبيرة، منها أنَّ عدة أجيال كانت تتناقل أحكاماً بعنوان الشهرة، نظراً لعدم وجود غيرها، وهي في حقيقتها لا تخرج عن كونها فتوى خاصّة بالشيخ الطوسي ّ.

---

(١) انظر: علم الدراية، للشهيد الثاني: ص١٧٤.

(٢) انظر: علم الدراية، للشهيد الثاني: ص١٧٤.

قال الشهيد الثاني ﵀ : (إنَّ أكثر الفقهاء الذين نشؤوا بعد الشيخ كانوا يتّبعونه في الفتوى تقليداً له، لكثرة اعتقادهم فيه وحسن ظنّهم به. فلما جاء المتأخّرون وجدوا أحكاماً مشهورة قد عمل بها الشيخ ومتابعوه، فحسبوها شهرة بين العلماء، وما دروا أنَّ مرجعها إلى الشيخ، وأنَّ الشهرة إنّما حصلت بمتابعته. قال الوالد قدس الله نفسه: وممّن اطّلع على هذا الذي بيّنته وتحقّقته من غير تقليد: الشيخ الفاضل المحقّق سديد الدين محمود الحمصي، والسيّد رضيّ الدين بن طاوس وجماعة)[١].

علّة تراجع الوسط العلمي الديني عند الفريقين

وأمّا ما يُقال: من كون نفي سلطة السلف سيكون من قبيل نفي الأنظمة السياسية، حيث يؤدّي ذلك إلى وقوع الفوضى، سواء في الحراك السياسي عند السياسيّين، أو في الفتوى الدينية في الأروقة العلمية، فكيف نطالب بالخروج من سلطة السلف، والخروج عنه عواقبه وخيمة؟.

فالجواب: إنَّ هذه الحجّة هي عين الحجّة التي استند إليها كلّ من أغلق باب الاجتهاد على المذاهب، وحصرها بالمذاهب الأربعة، حيث ادَّعى بأنَّ استمرار فتح باب الاجتها سيؤدّي إلى

---

(١) المعالم، لابن الشهيد الثاني: ص١٧٦.

الفوضى، ولم يُدرك أنّ المفاسد الكبرى التـي أوقعـوا الأمّـة فيهـا أعظم وأخطر بكثير، كان أقلّها هو أنّهم جعلوا الأُمّة متخلّفـة في فقهها وأحكامها، فصار المعاصر يقلِّد أبا حنيفة في حكم قاله قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة!؛ وهكذا حصروا مدرسة الـصحابة على أربعة مذاهب فقهيّة، وصبّوهم في قوالبها وقالوا: هيت لك.

ولذا نجد الآن في الفقه السنّي حجراً على المذاهب الأربعة، وما عداها من مذاهب فقهيّة مهما كانت عظيمة فإنّها محظورة، أو قل بأنّها غير مشروعة.

سلفيّة في الفكر الديني

إنَّ مسألة السلفيّة ـ وهي ليست مجـرّد سـلفية سـنّية، وإنّـما تدخل فيها سلفية شيعية أيـضاً ـ عـادة مـا تخلـق جـوّاً خانقـاً لا يُمكن للعلم أن يتنفَّس فيه بأيِّ حال من الأحوال.

والآن لو قرأنا واقعنا العلمي، وتحديداً في حوزاتنا العلميـة فإنّنا نجد في كثير من زواياها تعيش حالة سـلفية خانقـة، سـواء على المستوى العلمي أو على المستوى الإداري.

من هنا نقول نتيجة التعميم الملموس في الوسـطين، الـسنّي وسلفيّته التاريخية، والشيعيّ وسلفيّته المستحدثة، سـوف يُمكننـا التعميم بحكم جامع ـ مع ملاحظة الخصوصيات والتفـاوت في

درجة السلفية ـ فنقول: إنَّنا نعيش في إطار سلفية خانقة في الفكر الـديني عمومـاً، وهـذه الـسلفية تمـارس علينـا ألـوان الأوامـر والنواهي بداعي القداسة المفتعلـة لهـا، فتـشكّل ضـغطاً نفـسيّاً، وتسير بنا باتّجاه انفجارٍ خطير؛ ولذلك فنحن إنّما ندعو إلى إسلام القرآن لوقاية الأُمّة من انفجارٍ محتمل لا تُحمد عقباه، ربـما كـان أدنى تأثيراته خلق حالة من الإحباط العميقـة في نفـوس الأُمّـة، فضلاً عن حالة النفور العامّ الملموسـة والمحـسوسة عـن الـدين والتديّن، حتّى تكاد أن تخلو المساجد من أهلها، وهذا ما يحـاول البعض تغافله، لأنّهم لا يرون أبعد من أطراف أُنوفهم، أو قـل: بأنّهم لا يُريدون أن يروا أكثر من ذلك!.

جدير بالذكر أنّنا في الوقت الذي نـدعو فيـه للخـروج مـن سلطة السلف فإنّنا لا ندعو أيضاً إلى إهمال ذلك التراث، فهنالك فرق بين قراءة ومتابعة ذلك التراث وبين الالتزام به والاقتـصار عليه، ولذلك نحو ندعو إلى قراءة هذا التراث وما تركه الـسلف من أعلامنا رضوان الله عليهم قراءة موضوعية ناقدة.

السلطة الماليّة وحوزاتنا العلمية

إنَّ أيّ حركة تـصحيحية عـادة مـا تواجـه ذلـك الثـالوث المشؤوم (المال والإعلام المضادّ والسلطة)، وما يهمّنا هنا الإشارة إلى سلطة المال وهو من أقذر السلطات، فبه تُباع وتُشرى الذمم،

وبه يحجم الكثير من طلاب الحقّ عن التواصل، وأمامنا تجارب معاصرة عشنا تفاصيلها، فوجدنا كيف أنَّ المال مُفرِّق وجامع، يُفرِّق الخصوم، ويُجمِّع ضعاف النفوس.

إنَّ الكثير من الحركات التصحيحية التي شهدتها عصورنا الأخيرة عانت من الثالثوث المشؤوم عموماً، ومن سلطة المال خصوصاً، فصار أنصار الأمس وأتباع المنهج متشرذمين تجمعهم قوّة جذب المال، فما أبدلوا ولاء بولاء، وإنّما أبدلوا إلهاً واحداً يُعبد، وهو الله تعالى، بإلهٍ آخر صار يُعبد من دون الله، سرّاً وعلانية، وهو المال، وأحياناً الهوى والمال، فالمال إنّما سمّي بذلك للميل إليه، والهوى إنّما سمِّي بذلك للسقوط عليه، وقد كان السقوط عليه على علم ودراية منه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ٢٣).

ولكنّ ذلك لا يمنع من مواصلة الطريق، ومن سار على الدرب ببصيرة فقد وصل، ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ (طه: ١٦).

المشروع الإصلاحي بين الفردية والمؤسّساتية

لقد ذكرنا أنَّ من مفاصل مشروعنا الإصلاحي العمل المؤسّساتي على إنجازه وإتمامه، ولا ريب بأنَّ العمل المؤسّساتي لا

يُوجد من لا شيء، ولا يمكن أن ينهض به فـرد أو عـدّة أفـراد، وإنّما لابدَّ من كوادر تدير أعمالها بمهنيّة عالية.

ولذلك فأنا شخصيّاً متى ما وجدت شخصاً مهنيّـاً يُمكنـه إنجاز شيء أو حلقة من حلقات هذا المشروع الإصلاحي الكبير فإنَّ يدي ممتدّة إليه، ولا ريب أنَّ ما نطالعه من واقـعٍ مأسـاويّ، وعلى كافّة الأصعدة، الدينية والدنيوية، يجعلنا نقبل بالحدّ الأدنى من الكوادر العاملة على إنجاح هذا المشروع المبارك، بغية تسريع العمل وإتمامـه بـأسرع وقـت ممكـن لإنقـاذ واقعنـا الإسـلامي عموماً، والشيعي خصوصاً. ونعني بـذلك العمـل عـلى إنقـاذه فكرياً وعقدياً وسياسياً، وهذا مـا نـتلمَّس عظـيم الحاجـة لـه في أوساطنا الشيعية عموماً، وبلدنا العراق خصوصاً.

وممَّا يؤسف لـه كثـيراً: أنَّ الجـوّ العـامّ، والخطـاب الـديني والسياسي بشكل خاصّ، يتحرّكان بلغة المصالح، ولـيس أمامنـا من حلّ سوى العمل على دفع حواضرنا العلمية ـ وبالخـصوص حـوزة النجـف ـ إلى الانفتـاح عـلى المعـارف الدينيـة عمومـاً؛ لتستجيب لمتطلّبات الشارع الشيعي ومدرسة أهل البيت، فلابـدَّ من الانفتاح على معارف التفسير، بموازاة الانفتاح على معـارف الفقه والأصول، كما لابدَّ مـن الانفتـاح عـلى معـارف التـاريخ، وعـلى معـارف الخطابـة، والعمـل الجـادّ عـلى تأسـيس وإنـشاء

مؤسّسات خطابيّة قائمة على أسس صحيحة، وبناء مؤسّسات عقائدية وعقد دروس وجلسات عقائدية، وغير ذلك ممَّا يتطلّبه إنقاذ واقعنا من حالة التردّي الذي هو عليه.

مشروعنا الإصلاحي والحراك الفكري

وهنا نودّ أن نلفت النظر إلى ما أوجده هذا المشروع الإصلاحي الديني من حراكٍ فكريٍّ مهمّ، وجميعنا يُطالع السجال العلمي والتساؤلات الجادّة حول مفاصل هذا المشروع الخلّاق، وهذا من ثمرات هذا المشروع، فإنَّ إيجاد الحراك الفكري يعني أنَّ المشروع قد نجح كثيراً في تحريك المياة الراكدة، وإيجاد حالة من الاستفهامات المشروعة ـ بقطع النظر عن مضامينها ـ وهذا إيجابيّ بحدّ ذاته؛ وما نعتقده أكيداً أنَّ كلّ مشروع إصلاحي إذا لم يُوجد حراكاً فكرياً فإنّه لا يمكنه أن يكون نافذاً ومؤثّراً في الأُمّة.

ونصيحتي لجميع الفاعلين والمنفعلين في هذا الحراك الفكري الملحوظ هو أن نكون حضاريّين في هذا الحراك، فننتخب لأنفسنا لغةً موضوعيةً بعيدةً عن لغة الإقصاء.

نعم، لابدَّ من تجاوز لغة الإقصاء والاتّهام، ولغة التسقيط، والابتعاد عن منطق المؤامرة، وأنّه من كذا وكذا؛ فلنتكلَّم بلغة العلم التي تجعل منّا قدوةً للأخرين، ونكون فخورين بمدرسة

أهل البيت، وتكون مدرسة أهل البيت فخورة بنا، وأنا مطمئن جدّاً بأنّنا بذلك سوف نكون قدوةً وأسوةً حسنةً للجميع، وسوف نضطرهّم بخطابنا الموضوعي المعتدل إلى الاستجابة.

مشروعنا الإصلاحي بين الأُمّة والحواضر العلمية

وأخيراً نودّ توضيح وتأكيد أمر كنّا قد أشرنا له في السطور السابقة، يتعلَّق بوجه الإعلان والبوح بمثل هذا المشروع الإصلاحي الذي قد يُقال فيه أنَّه مشروع خاصّ بالحواضر العلمية، فينبغي طرحه في أروقتها وتجنيب الأُمّة عن محلّ الخلافات والصراعات الفكرية، وغير ذلك من اللوازم الخطيرة اللازمة للإعلان عنه، وبالتالي فالإعلان عنه منافٍ للحكمة، بل وناقض للغرض أيضاً.

والجواب عن ذلك نقضاً وحلّاً؛ أمّا النقض فإنَّ سيرة القرآن وسيرة أهل البيت عليهم السلام لا تتّفق مع كتمان الحقّ، لاسيّما إذا كان أهل الحلّ والعقد لا يستجيبون لنداءات التغيير والإصلاح؛ ونحن بحسب تجربتنا وجدنا نفوراً وصدوداً عظيماً من أهل الحلّ والعقد؛ وبالتالي فإنَّ معظم المتصدِّين لا نرى فيهم أهليَّة قيادة الأُمّة، كما لا يصحّ منّا السكوت عن قيادتهم للعقل العامّ للأُمّة.

نعم، لابدَّ من إيجاد صرخةٍ موازيةٍ لصرخة الإمام الحسين عليه السلام، صرخة تاريخية هزَّت وجدان الأُمّة، ولو تابعنا سيرة الإمام

الحسين ﷷ مع المتصدِّين من العلماء والمتحدّثين والمُحدِّثين في عصره نجد أنَّ الأعمّ الأغلب منهم كان خانعاً مستسلماً لقيادة الحكم الأمويّ، آيساً من فرصة التغيير، فكان القريب والغريب ينصحونه بأن يفرّ إلى الصحاري والبراري إنقاذاً لنفسه الشريفة؛ ولكنَّ الإمام الحسين الأبيّ ما عاش ليفرَّ من مواجهة الطغاة، ولم يُخلق ليستسلم مع المستسلمين، فكان الحسين، وهو ابن أبيه كما يصفه المرحوم العقّاد.

ونحن لنا أُسوة حسنة بجدّنا الإمام الحسين ﷷ يوم نذر نفسه للتغيير من خلال تحرّك الوسط الجماهيري، وإسقاط القادة والمتصدِّين ـ ممَّن ليس لهم الأهليّة في ذلك ـ من وجدان الأُمّة.

نعم، كان لابدَّ من تصفير قيمتهم ورقميّتهم في وجدان الأُمّة، وكان لابدَّ من تحطيم ذلك الكيان المهيمن على عقل ووجدان الأُمّة بالباطل آنذاك، وكان لابدَّ للإمام الحسين ﷷ من وضع النقاط على الحروف، وقد فعل، ونحن على خطاه سائرون.

ولو لاحظنا ما كُتب في ثورة الإمام الحسين فإنّنا سنجد أصواتاً خانعة كانت تصف ثورته العظيمة بالفتنة، وأنّه شقّ عصا الطاعة، وأنّه مزَّق الأُمّة الموحَّدة؛ وهكذا خرجت الفتاوى البائسة من تلك العقول المتخلِّفة لتصف الإمام الحسين ﷷ بأنّه

قُتل بسيف جدّه، وأنّه استحقّ ذلك الجزاء بالقتل له ولأولاده ولإخوته وأنصاره، واستحقّ السبي لنسائه، عملاً بما روّجه علماء السوء ووعّاظ السلاطين؛ وهكذا تصدَّى الإعلام الأمويّ لمواجهة الثورة الحسينية، فكذَّبوا على رسول الله جهاراً، ونسبوا له أنّه قال: (ستكون هنات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمّة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان)(١).

وهذا ما جعل عبد الله بن عمر يقرّ ببيعة يزيد الفاجر الفاسق وشارب الخمور؛ قال نافع: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه ومواليه وقال: إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (إنَّ الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان، وإنَّ من أعظم الغدر بعد الإشراك بالله أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، ولا يخلعنَّ أحد منكم يزيد، ولا يشرفنَّ أحد منكم في هذا الأمر فيكون صيلماً بيني وبينه)(٢)؛ والمدوّنات التاريخية تقول إنّه ما قال ذلك إلّا بعد أن وصلته صلة بمائة ألف دينار من يزيد، فكان لابدّ أن يرفع للغادر يزيد لواءً يوم القيامة!.

---

(١) صحيح مسلم: ج٢ ص١٢١؛ سنن أبي داود: ج٢ ص٢٨٣.

(٢) صحيح البخاري: ج١ ص١٦٦؛ السنن الكبرى: ج٨ ص١٥٩ ـ ١٦٠.

وروى أمويّ آخر ـ عبد الله بن عمرو بن العاص ـ عن رسول الله ﷺ: (من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليعطه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر. قال عبد الرحمن بن عبد ربّه: فدنوت منه فقلت له: أنشدك الله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه. وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي. فقلت له: هذا ابن عمّك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ «النساء: ٢٩»؛ قال: فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله)[١].

ثمّ انظر إلى الطامّة الكبرى في خبر يرويه البخاري بسنده عن مسلمة بن زيد الجعفيّ أنّه سأل رسول الله ﷺ فقال له: (يا نبيّ الله أرأيت إن قامت علينا أُمراء يسألونا حقّهم، ويمنعونا حقّنا فما ترى؟ فأعرض ﷺ عنه، فسأله ثانياً وثالثاً والرسول معرض، فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم: ج٦ ص١٨؛ السنن الكبرى: ج٨ ص١٦٩؛ سنن ابن ماجة: ج٢ ص٤٦٧. يُنظر تفصيل المسألة: الغدير: ج٧ ص١٤٦؛ ج١٠ ص٢٨.

اسمعوا وأطيعوا، فإنَّ عليهم ما حُمّلوا وعليكم ما حُمّلتم)[١].

وهذا ما منح معاوية بن أبي سفيان السلطة الشرعية الكاملة في أن يجلس بالكوفة للبيعة فيبايعونه على البراءة من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

والتاريخ يُعيد نفسه، والعاقل من اعتبر، قال تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ**﴾ (آل عمران: ١٣٧)؛ وقال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ (الحجّ: ٤٦).

وأما الجواب الحَلّي:

فأوّلاً: ما هو دليلكم على لزوم الصمت في هذه الأُمور أمام الأُمّة، وحصر عرضها في الأروقة العلمية، دلّونا على آية أو رواية تُثبت لنا ما تدَّعون؛ وما يُذكر في مقولتكم الإسكاتية قد أجبناه عنه، فلا ينبغي لنا أن نعيد[٣].

وثانياً: هل ما طرحناه قضية علمية خاصّة لتختصّوا بها؟ أم أنّها قضية دين، وقضية آخرة، فهل الدين دينكم وحدكم، وهل

(١) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري: ج٢ ص١١٩.

(٢) البيان والتبيين: ج٢ ص٨٥.

(٣) تقدَّم في المحور السادس، بحث قاعدة (ليس كل ما يُعرف يُقال).

الآخرة لكم وحدكم؟.

وثالثاً: إنَّ ما طرحناه وظيفة شرعية تنصّلتم عنها، وهو واجب كفائي أدّيناه عنكم، فما قمنا به كان إنقاذاً لكم قبل أن يكون إنقاذاً للأُمّة، وإسلام القرآن يقول: ﴿**هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾ (الرحمن: ٦٠)، لو كنتم تعلمون.

وأخيراً: لنا أنْ نسأل: إنَّ صوتنا كما وصل لعامّة الناس فإنّه يُفترض به أن يكون قد وصل لخواصّهم، أو قل: بأنّه قد طرق أبواب الأروقة العلمية والحواضر الدينية، فهل استجابوا، وهل سيستجيبون لشيء ممَّا ذكرنا؟ قال تعالى: ﴿**... فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ**﴾ (يونس: ٢٠)، و﴿**...إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ**﴾ الشعراء: ١٥).

نعم، إنَّ كلّ ما وصلنا من ردود فعلٍ غاضبةٍ من بعض أتباع مدرسة أهل البيت هو الدسّ والتهديد والوعيد، وممَّن يسمُّون أنفسهم بأهل الحلّ والعقد، فما عقدوا حقّاً، ولا حلّوا باطلاً، «**فصغى رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هن وهن...**»[1]؛ ولا نقول إلّا ما قاله سبحانه: ﴿**...وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ (سبأ: ٢٤).

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٣٥؛ من الخطبة الشقشقية.

ومع ذلك سندعو لهم ولنا وبما أدَّبنا القرآن الكريم عليه بقوله تعالى: ﴿...رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف: ٨٩)؛ ﴿...رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤)، والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيّدنا وحبيبنا وشفيعنا محمّد وآله الطاهرين.

الفهرس

المحور الثالث

إسلام القرآن وإسلام الحديث

المحور الرابع

مفاصل المشروع الإصلاحي

المحور الخامس

دور العلماء والنُخب والأُمّة في إنجاح المشروع

المحور السادس

مسائل في الصميم

المحور السابع

الإصلاح بين سلطة المال وسلفيّة الفكر الديني